الطبعة الخامسة

محمود يوسف خضر

مكتبة
Telegram Network
2020

فِي حَقائِق الوجُود

مدخل إلى الأسطورة

التنوير

في حقائق الوجود؛ مدخل إلى الأسطورة

محمود يوسف خضر

الكتاب: في حقائق الوجود، مدخل إلى الأسطورة

تأليف: محمود يوسف خضر

عدد الصفحات: 208 صفحة

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

لوحة الغلاف: أراكني (Arachne) من لوحة للرسام الإيطالي باولو فرونزه.

الترقيم الدولي: 978-614-472-063-9

الطبعة الخامسة: 2019

جميع الحقوق محفوظة © دار التنوير 2019

الناشر دار التنوير للطباعة والنشر

لبنان: بيروت - بئر حسن - بناية فارس قاسم (سارة بنما) - الطابق السفلي هاتف: 009611843340 بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

مصر: القاهرة -2 شارع السرايا الكبرى (فؤاد سراج الدين سابقا) - جاردن سيتي هاتف: 002022795557 بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com

تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس هاتف وفاكس: 0021670315690 بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.comموقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

إهداء

إلى أحفادي لِيلي وإلياس نعمل على أن يكون عالمكم أفضل من العالم الذي ولدنا فيه.

محمود خضر
أبو ظبي
4/4/2019

مدخل

قد يبدو للوهلة الأولى أن ما يمكننا قوله عن الفلسفة قد قيل، وأن أية إضافة محكومة بالإخفاق. ولكني آثرت السير بين علامات الاستفهام والتعجُّب، واستخدمت لغة لا تقول حقيقة ما ترسمه الحروف، بقدر حاجتها إلى التأويل. ولذلك مزجتُ في القسم الأول - في مجموعة مقالات - ما بين الأسطورة الإغريقية وموضوعات فلسفية، كالأخلاق والجمال والفن والزمن. وتحدثتُ، في القسم الثاني، عن ميلاد الفلسفة اليونانية. وتناولت، في القسم الثالث، إشكالية عقوبة الإعدام، كمشكلة فلسفية أخلاقية، أردتُ الدفع بها إلى السطح، للجدل حولها، على الرغم من إدراكي أنها لا تأتي في مصاف المشكلات الكبرى، كالوجود والعدم، أو الخير والشر.

وطالما أننا دخلنا إلى محراب الفلسفة، فإننا بذلك نكون قد تناولنا موضوعاً مترامي الأطراف، مليئاً بالأفكار غير المحدّدة، التي دائماً ما نعثر فيها على شيء من الصواب، وكذلك على شيء من الخطأ.

وعندما يتبادر إلى الذهن التساؤل حول ماهية الفلسفة، فإننا بذلك نكون قد وضعنا أنفسنا خارج الفلسفة وبمعزل عنها، بينما الهدف من هذا الكتاب هو أن «نتفلسف»، ونسأل: ما هو الوجود؟ ماذا يجب أن نفعل؟ ما هي الحقيقة؟ هذه الأسئلة وغيرها كانت موجودة منذ القدم، وهي مطروحة الآن، وستبقى إلى الأبد، وقد نخفق في الإجابة عنها مرة تلو أخرى. لكن، يبقى التفكير في الإجابة عن تلك الأسئلة هو: الفلسفة.

كانت الفلسفة، والحكمة، والكثير من العلوم، تشكّل حقلاً واحداً، وبمرور الزمن خرجت علوم الكيمياء والرياضيات والفلك وغيرها، من تحت عباءة الفلسفة، وأصبحت العلوم أكثر تخصّصاً، وغدا تاريخها هو تاريخ تحرّرها من الفلسفة التي أخذت تضيق رقعتها.

ولا غرابة في أن يتساءل المرء: لماذا تعرَّضْتُ لتاريخ الفلسفة الإغريقية دون سواها؟ إنني أروي تاريخ هؤلاء الفلاسفة الأوائل - بشكل مبسّط - لأنهم أسَّسوا أنساقاً فلسفية تبدو خطأً كبيراً للأجيال اللاحقة، ولكنها شكلت بدايات للوعي الإنساني المؤسس على التفكير العلمي، بعيداً عن الحكمة، ومنفصلاً عن الخرافة. كما أنه لا يمكن فهم الحضارة الأوروبية من دون معرفة الحضارة الإغريقية التي تشكّل الفلسفة اليونانية عمودها الفقري. لقد غرقت أوروبا في عصور الظلام ألف عام، عقب تنصُّلها من الحضارتين الإغريقية والرومانية بعد ظهور المسيح، إلى أن جاء عصر الرينسانس منطلقاً من دويلات إيطاليا، التي كان بخور فينوس لا يزال يفوح من معابدها، وتتراقص على جدرانها خيالات مسرحيات سوفوكليس، فحاولت التوفيق بين المسيحية والأرسطوية، ونجح توما الأكويني في التوفيق بين المسيحية وتعاليم أرسطو، وأعيد اكتشاف أفلاطون بفضل الفلورنسيين، فأثارت المحاورات الأفلاطونية نقاشاً حادّاً طوال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، وقد كان لجوتنبرج - باختراعه الطباعة قرابة السنة 1470م - الفضل في نشر المعرفة المكتوبة، ووصول الأفكار بشكل سريع إلى المدن الأوروبية كافة.

وكان الإغريق يعتبرون أنفسهم شعباً متميزاً عن بقية شعوب العالم، ورواداً للديمقراطية في العالمين: القديم والحديث، فكانت رغبة المواطنين هي التي توجّه سياسة الدولة، حيث يُسمح لكل أثيني بحضور جلسات الجمعية الوطنية والمجالس الشعبية، ويتم انتخاب نواب الشعب وممثلي الحكومة في حرية ويُسر، وللشعب أن يشترك في اتخاذ القرارات، ويحاسب المسؤولين عن تنفيذ القوانين. ولم يكن نظام الديمقراطية في أثينا تقليداً لجيرانه، بل نموذجًا أبدعته العقول الإغريقية.

وعلى الرغم من أن مؤرخي الأدب تعدّدت آراؤهم في نشأة التراجيديا، إلا أنهم متفقون على أنها نشأت في اليونان القديمة.

وكما يقول أرسطو: إنها نشأت من الرقصات الغنائية «الديثورامبوس»، التي كانت تُقام تكريماً للإله «ديونيسيوس»، وكانت الديثورامبوس تؤدّى من قبل مجموعة من الراقصين، ينتظمون في شكل دائرة يتوسطها منشد، ويقف بجواره عازف القيثارة. ولقد تطوّرت التراجيديا على يد عظماء المسرح من الإغريق، أمثال يوريبيدس «ولد العام 480 ق. م.»، وسوفوكليس «ولد العام 495 ق. م.». وما زالت أعمالهم تعرض على خشبة المسرح حتى يومنا هذا، ويصفّق الحاضرون لـ«أوديب ملكاً» و«ألكترا»، كما يصفّقون لـ«عربة اسمها اللذة».

إن الفلاسفة الإغريق الأوائل وأدباءهم، من طاليس إلى أفلاطون، ومن أريستوفانيس إلى أسخيليوس، عاشوا للمعرفة فقط، قبل أن تكون للمعرفة سلطة. ولم يجعل الإغريق منهم قديسين، بل مات سقراط محكوماً عليه بالإعدام، وكاد يُباع أفلاطون كعبد في سوق النخاسة.

إن ممارسة الفلسفة اليوم هي محاولة تحرير العقل من سيطرة سلطة المعرفة الجامدة، المتمثّلة في المدارس والجامعات والكنائس والجوامع والقوالب الجامدة التي نفكّر بها ومن خلالها... إنها دعوة لقراءة الأدب الإغريقي، وتحرير العقل العربي من الخرافة.

محمود يوسف خضر مقدمة الطبعة الخامسة يشرّفني أن تتفضّل دار التنوير في بيروت، مشكورة بإصدار كتابي «في حقائق الوجود» في طبعته الخامسة هذه، بعد أن صدرت الطبعة الأولى عن المجمع الثقافي في أبو ظبي في العام 1999، والثانية عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، العام 2002، والثالثة عن المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، العام 2004. والرابعة عن مؤسسة الانتشار العربي في العام 2006.

تتضمّن هذه الطبعة، المنقّحة، أربعاً من سلسلة مقالات تناولت الكتاب، ونُشرت في الصحافة العربية، في أعقاب صدور الطبعة الأولى منه، آملاً أن تؤدّي هذه الإضافات إلى فائدة للقارئ الكريم.

في حقائق الوجود لمحمود خضر: سهل ممتنع[1] ثروت عكاشة ما من شك في أن ازدهار الفنون والآداب تصحبه انعكاسات معينة على صفحة الفكر البشري، ولا يستطيع مؤرخ ما أن يعزل ما يسرده من حوادث الفن وتطوّراته، عن حوادث الفكر التي واكبتها. فلا يمكن أن

ينقطع الارتباط بين شكل وآخر من أشكال التعبير، عن الأفكار والمشاعر، سواء بالكلمة أو بالصورة. وهذا الارتباط ذو فائدة كبرى في التعريف، من ناحية أخرى، بالأفكار والمبادئ الفلسفية التي صاغت وجدان الفنانين الذين انفعلوا بالأفكار الفلسفية. ولا جدال في أن تقريب الأفكار الفلسفية العميقة بهذا الارتباط العلمي، يزيل الكثير من مصاعب الفلسفة، وذلك بالمقابلة بين لمسة الذهن البشري ولمسة الفن الخالد.

وها هو ذا محمود يوسف خضر، الذي عرفته منذ شبابه المبكر متعطّشاً للمعرفة، دؤوباً على تحصيلها، متردّداً على مجالس الأدب والفكر والفن، بانتظام يثير الإعجاب، عاشقاً لكل ما صدر عن الحضارة الإغريقية من فكر وفنون، يبسط لنا في كتابه هذا لمسة الذهن الإغريقي. ولا غرو، فقد نشأ «متفلسفاً» محباً للحكمة.

وهو، في كتابه، يحاول تبسيط غوامض الفلسفة اليونانية حتى يقرّبها إلى الأذهان، وقد تبدو مهمّة التبسيط، سهلة، ذلولة، لكنها غير ذلك في أمور الفكر الفلسفي، فهي تقتضي جهداً غير يسير، وثقافة موسوعية بغير حدود، أدّت به إلى الإيمان بأنه من العبث أن يبحث الناس في هذه الحياة عن حقيقة مطلقة، إنما يجب أن يبحثوا عن معرفة عقلية نسبية، هي كل نصيبهم في الحياة، فالحقيقة لا تأتي إلا عن طريق الإلهام.

ويبدو أن الصديق المؤلّف، مولع بحكمة الشاعر اللاتيني «هوراس»، المنادية ب«اقتناص اليوم»، وهي العبارة الشهيرة التي صارت مثلاً، حين وصف بها المجتمع الروماني الذي كان يعيشه، حيث أمست الثقافة الرفيعة مثل لحن شجيّ يرقص له مجتمع الملذات وهو على حافة بركان، فيقول: «وقبل أن نفرغ من حديثنا سيكون الزمن ذلك الغادر قد ولّى هارباً، فاقبض إذن يومك، ولا تثق مثقال ذرّة في غدك».

أم نراه كان متأثّراً في ما يقول برباعيات عمر الخيام؟

فهو لا يفتأ يردّد هذا المعنى، بعشق ملهوف بين آونة وأخرى في ثنايا كتابه الصغير الحجم البالغ الشأن، والذي زفّ خلاله ببراعة مشهودة «الأسطورة» إلى «الحكمة».

ثم يفاجئنا في نهاية الكتاب، بالعودة إلى صميم تخصّصه، قانونياً ضليعاً، فيعكف على تناول عقوبة الإعدام على مر التاريخ، حتى يصل إلى العهد الحديث، مزوّداً إيانا بحصيلة معرفيّة مشوّقة، في موضوع لا يكاد يطرقه إلا القلّة.

هذا كتاب شائق، رفيع المستوى من النوع «السهل الممتنع»، أوصي أن يطالعه النشء في أنحاء أمتنا العربية، ليكون مدخلاً إلى ما هو أشقّ وأعمق.

حول الحياة

1 - طيران الجسد

2 - الفضيلة الناقصة

3 - الزمن الضائع

4 - عالم بلا جريمة

5 - أين تنتهي الأسطورة وأين يبدأ التاريخ؟

6 - في مدح المرآة

7 - تنمية الخيال

8 - في تاريخ الحب وأصله

9 - ضد الجوع

10 - بيان إلى القرن الحادي والعشرين

طيران الجسد

... في ممرّات الحياة الضيّقة، تجمّع اليونانيون القدامى، مشرّعين سيوفهم ملوّحين بحرابهم، استعداداً للإبحار لاسترداد معشوقتهم «هيلانة»، فهاجت البحار وماجت بزبدها، رافضة إبحار السفن المحمّلة بالجيوش، فطالب كالخاس العرّاف بذبح إيفيجينيا - ابنة أجاممنون - إرضاءً للآلهة، وعندما جيء بها تفجّرت ينابيع الدموع من عيني والدها الذي أخذ يلوِّح بردائه طارداً خوفه وهواجسه، وازداد هلعه عندما خاطبته ابنته: يا أبتاه إفعل ما أُمرت به، إنني أقدّم جسدي راضية ما دامت هذه مشيئة الآلهة. فانتزع الكاهن كالخاس سيفه المسلول لتنعكس على نصله أشعة الشمس الذهبية، ويتوقف «أبولو»[2] عن جرّ عربة الشمس، فتتجمّد مياه الأنهار، ويهوي كالخاس بالسيف على رقبة «إيفيجينيا»[3] فتتفجّر البراكين، وتزمجر الحمم الحمراء على جوانبها. عند ذلك انحبست أنفاس الحضور، فتحوّلت السحب إلى اللون الأسود، ليظهر غزال برّيٌّ جميل[4] تتفجر الدماء من شرايينه. وتساءل الحاضرون: أين اختفت «إيفيجينيا»، ومتى استبدلتها الآلهة بذلك الغزال الجميل؟ ليس للبشر أن يعلموا بما تخبئه الآلهة لهم.

ولا تخلو الأسطورة المشار إليها، من رمز لأهمية الجسد، كقربان درج البشر على تقديمه للآلهة مقابل تسيير أمورهم الحياتية، إلى أن استُبدل الجسد البشري بقربان حيواني.

يُحيكُ كل منا رؤيته عن الجسد وفق بيئته الثقافية، ويتعامل من خلالها، فالجسد هو القربان وهو المحبوب. وتتوقّف كيفية التعامل مع الجسد على المستويات الاجتماعية والثقافية، فيذهب المريض للطبيب طلباً لعلاج جسده، وفي حال الفشل، يدلف إلى أحد الماكرين من المشعوذين أو السحرة، أو يلجأ للتنويم المغناطيسي. وحين يتجاوز الطبيب، فإنه يكشف عن إدراكه بأن الجسد لا يخضع فقط للعلاج الطبي، وأنه مرتبط بالكون بشكل غامض ومبهم. فاللجوء في الطب الشعبي إلى عنصر معدني يساعد على الشفاء من مرض ما لتشابهه مع العضو المصاب. واللجوء في أحيان أخرى، إلى ينابيع معينة أو إلى الأشجار أو النصب التاريخية التي يفترض بأنها ستساعد على الشفاء... هذه السلوكيات هي انعكاس للمفهوم الإنساني للجسد.

وما زال الاعتقاد سائداً بأن للجسد تأثيرات غير مرئية. فالمرأة الحائض في بعض المجتمعات الريفية لا يُسمح لها بتحضير الأجبان أو الزبدة، أو حلب البقر، كي لا تفسدها، وكأن الدم النازف من الجسد الواهي لديه القدرة على التأثير خارج واقعه. وليس ببعيد عنه الحركات الفكرية المتطرّفة ونظرتها الضيّقة إلى الجسد الأنثوي، الداعية إلى إخفائه وتحريم رؤيته، لأنها محاولة للإمساك بعالم ينساب من بين أيديهم.

إن كلاً منا يسكن جسداً يستحيل الهروب منه، ولكنّ بعضاً تفيض ذاته خارج الجسد. وعند بعضٍ آخر يكون الجسد رداءً أوسع من صاحبه، وداخل الجسد الأخير خواء. فلقد أثقل الإنسان بجسد يسهل التأثير عليه بالمرض والبتر والحبس، ويتحوّل إلى آلة بشرية إذا فقد مالكه الفكر.

والنفس ساكنة الجسد، ترضى وتسعد إن كان صاحبها قادراً على التكيف والاندماج مع بيئته الاجتماعية والمادية. فالبيئة الاجتماعية شريك محايد في عملية السعادة، والأمر هنا أشبه بعصفورٍ جميل يحمل قلبه ويسعى لبناء عش في غابة خارج دهاليز الزمن. فالغابة هنا لن تكترث بنجاح عملية البناء أو إخفاقها، ولن يحرّك أحد ساكناً لمساعدة العصفور، بغض النظر عن جهوده ورغباته. والتكيّف مع المحيط الاجتماعي، المتلاطمة أمواجه، من أجل السعادة لن يمنحه أحد لك، فبالإرادة تصنع السعادة مع من تحب، وبالعمل تولد معايير جديدة قد تبدو للوهلة الأولى غريبة، ففي البدء لم تكن هناك طرقات، ولكن عندما يسير كثير من البشر في اتجاه واحد تتضح معالم الطريق.

والواقع الاجتماعي اليومي المعاش متغيّر وثابت في اللحظة ذاتها، كطاولة الطعام التي تبدو ساكنة، ولكنها حقيقة تحتوي على ملايين الإلكترونات والنيوترونات الدائمة الحركة. ويتغير هذا الواقع من الداخل بتراكم الاختلافات اليومية البسيطة في القيم والسلوكيات، ومع مرور الزمن والتحدّي الموجود بداخلنا، يصنع واقع اجتماعي جديد لمفاهيم جديدة تتماشى مع حركة الجسد ورغباته.

فالطبيب الذي يهتمّ بالمرض وشفاء الجسد، ولا يعطي اهتمامه لما هو أبعد من هذا الجسد: للذات، للنفس، فإنه يكون قد ضلّ الطريق، ذلك أن الجسد مكان عابر لحياة عابرة في ومضة من ومضات الكون.

والمعرفة التشريحية للجسد لا تستطيع قياس درجة الألم الذي يتعرّض له الإنسان نتيجة لخداعه أو لمروره في أزمة نفسية.

لتكن حرّاً في امتلاكك لجسدك، بأن تغذيه أو تدثره بجميل اللباس أو تعامله كطفلك بتلبية رغباته والمحافظة عليه، إلا أن الوجود سيُختزل بذهاب جسدك.

فالإنسان يُقهر في أروقة المحاكم والسجون عندما تُقيّد حرية جسده، فيُمنع من الخروج أو يجبر على المجيء إلى مكان محدّد بشكل دوري، والهدف إيلام الجسد وتقييده، وإيلام ما يملكه الإنسان عقاباً للذات البشرية التي هي بمنأى عن التعريف أو الإحساس بها في حلها وترحالها، وتفرُّدها من الجسد. فهذه الذات أكبر من الجسد ولكنه يحتويها كما يحتوي على عوامل فنائه، إذ إن حرّية أعضائنا في التعبير عن ذاتها مفروضة علينا. ولا يكفّ الجسد عن رفضه لهذا الواقع الذي يكبّله إلى الأرض بجاذبية لو برّئ منها لحلّق في عنان السماء، ولاستمتع بالحياة متجاوزاً مراسم الجسد، وطقوس الولادة.

وتبدو المعايير الأخلاقية في النظر إلى الجسد متفاوتة إلى حد هائل من مكان إلى آخر ومن زمان إلى زمان، فما يعدّ «عيباً» من الأفعال المتعلّقة بالجسد في مكان ما، يعتبر «خيراً فاضلاً»، وربما مقدّساً في مكان وزمان آخرين. فلدى بعض قبائل الأسكيمو يقدّم الزوج زوجته للنوم مع الضيف، إكراماً له وتقديراً واحتراماً لمكانته.

ولدى قبائل الهنود كانت النساء الأرامل تُدفن بمجرد وفاة أزواجهن. بينما ما زالت ساقا المرأة تعتبر عورة في مجتمعاتنا الشرقية، وهي في المجتمعات الغربية تمثل قيمة جمالية.

وفيما يُؤثِّرُ الاتفاق الاجتماعي بدرجة كبيرة على أحكامنا عن الفضيلة والأخلاق، فإن تبدّل العادات وعدم ثباتها يؤدّي إلى تطور المفاهيم الأخلاقية، التي تأتي من جانب فئة قليلة لم ترضخ لرهبة هؤلاء الذين لا يجدون علاقة بين الاتفاق الاجتماعي والمفاهيم الأخلاقية الخيّرة، ولو لم يوجد أمثال هؤلاء لما انتهى الرّق، ولبقينا واقفين في سرادق الحداد.

ونصل إلى قمة دراما الجسد في اللحظات الأليمة التي مرّ بها السيد المسيح عندما اقتيد أمام بيلاطس الحاكم الروماني للتحقيق، حيث يسأله بيلاطس، «أملك أنت إذن؟» فيرد السيد المسيح: «إنها كانت الغاية التي من أجلها ولدت، والغرض الذي من أجله أتيت إلى العالم، هو أن أكون شاهداً على الحقيقة، وإن كل من كان من أهل الحقيقة ليصغي إلى ما أقول»[5]. فيردّ بيلاطس بسؤال خالد: «ما الحقيقة؟». ويكبر السؤال وتبرز الإشكالية. إن من النادر أن يتّفق الناس على حقيقة معيّنة أن أذهانهم لا تعي الشيء نفسه، ذلك أن لكل منا معياره الخاص لقياس الأشياء والأفعال، وإخضاعها لمنطق الصواب والخطأ، ندلف إلى الحديث والحوار بالألفاظ نفسها ولكن بلغة مختلفة، فإذا قلت «حقيقي»، وفي ذهنك شيء معيّن، وقال آخر عن الشيء نفسه «حقيقي» وكان في ذهنه شيء آخر، فتكون لكل منكما حقيقته المختلفة عن الأخرى. فما هو سلوك أخلاقي في مجتمع ما، في زمن ما، هو أيضاً سلوك غير أخلاقي في مجتمع آخر. إن حدود معرفتنا للعالم مكبّلة بالحواس الخمس، وبالعقل بأبعاده الذهنية، وبالإيمان بالمعتقدات، وهي التي تحدّد شكل علاقتنا مع جسدنا وأجساد الآخرين.

فعبر التسكّع في طرقات الغموض وما بين الضباب والغيوم، يشق العقل البشري طريقه لتبديد الالتباسات وصولاً إلى الحقيقة، التي لن نصل إليها ما لم ننفض الغبار عن البديهيات وننبش في أرضية المعاني ونعيد نحت التماثيل الجامدة لبث الحياة في شرايين الحقيقة.

إن عنوان الجسد ورمز الشّخص هو الوجه، أما العينان فهما نافذة القلب. ففي رواية «صورة دوريان جراي»[6] لأوسكار وايلد، ومقايضته الخلود مع الشيطان، والإبقاء على جسده كما هو عليه، وانعكاس سلوكياته على صورته لحظة رؤيتها في المرآة التي خبّأها عن البشر، وصار يعود إليها من حين إلى آخر، لم يحتمل «دوريان جراي» قبحه الداخلي المنعكس على صورته في المرآة، فأمسك بالسكين وغرسه في اللوحة، فانتقل القبح من الداخل إلى الخارج حيث تعفّن الجسد وتقيّأت أحشاؤه. وعادت الصورة إلى جمالها الأول، وتحول الجسد إلى الموت. تلك الحياة التي توضح بأن إدراك الإنسان لذاته مرهون بإدراكه لجسده، وهذا الإدراك لن يتأتّى إلا من خلال الجسد (الوعاء)، فانظر يا صديقي إلى المرآة واسأل نفسك: «هل تشبه ذاتك؟».

وإن لم تجد الإجابة فمزّق قلبك، ودع النوارس تبتلعه، كما ابتلع الحوت يونس، لا تستحِ من ذاتك فليس من اللائق أن تسير في الطرقات حاملاً قلبك ما بين يديك.

الفضيلة الناقصة

في إحدى ليالي الصيف، عندما اكتمل القمر وانعكست صورته على ضفاف نهر التايمز، تذكّرت مصير «أراخني» التي تطاولت على «مينرفا»[7] وادّعت أنها لا تقل مهارة في الغزل عنها، فتنكّرت مينرفا على هيئة عجوز وتوكأت على ظلال حياتها وبادرت أراخني قائلة: اسمعي نصيحتي، واحرصي على ما شئت أن يُقال عنك إنك أكثر البشر مهارة في غزل الصوف، ولكن لا تقارني نفسك في هذا الصدد بالآلهة. فحدقت أراخني في المرأة العجوز بنظرة غاضبة قائلة: لا تخالي أن تحذيراتك سوف يكون لها أثر في نفسي. لماذا لا تأتيني مينرفا، ولماذا تتهرّب من مباراتي؟ وحينئذٍ صاحت الآلهة: ها هي ذي الآلهة أتت. وخلعت عن نفسها صورة المرأة العجوز فتباريا في النسج، ونسجت أراخني صوراً تمثل نزوات الآلهة الآثمة، ولم تستطع مينرفا اكتشاف أي عيب في اللوحة، فتملّكها الغضب لنجاح منافستها، ومزّقت اللوحة ثم أمسكت بجذع شجرة وهوت بها على رأس أراخني، التي لم تحتمل تلك الإهانة فلفّت حول عنقها حبلاً شنقت به نفسها. ولما رأتها مينرفا على تلك الهيئة أشفقت عليها وقالت لها: «لتبقي حية، ولكن معلّقة في الهواء إلى الأبد»[8]. ثم أخذت في الابتعاد بعد أن نثرت على أراخني عصارة عشب مقدّس. وما كادت عصارة هذا العشب السام تلامسها حتى تساقط شعرها وضمر أنفها وأذناها ورأسها وبقية أطرافها، وبرزت لها أصابع دقيقة في جبينها بدلاً من ساقيها، ولم يبق منها إلا بطنها ينساب منه الخيط، وها هي تواصل النسج كما كانت تفعل من قبل، وإذ هي تصبح عنكبوتاً.

هل ما فعلته الآلهة بحق أراخني خيراً أم شراً؟ وهل الفعل الجميل جميل لأنه محبوب من الآلهة، أم هو محبوب منها لأنه جميل؟ وهل ما فعلته مينرفا نابع من أحاسيسها، أم هو تصرّف مصدره العقل؟ وما الذي طغى على الآخر في هذا التصرف: العقل أم الوجدان؟ ولأيّهما نلجأ عندما تختلط علينا الأمور، إلى العقل أم إلى الإحساس؟ فإذا تنازعنا حول الأثقل والأخف لجأنا إلى الميزان، وإذا تنازعنا حول الطويل والقصير لجأنا إلى المتر للقياس، وإذا تنازعنا حول الفعل، هل هو خير أم شر، جميل أم قبيح فلمن نلجأ؟

يتحوّل الإنسان إلى حيوان عندما تتحكّم غرائزه بعقله، ويصبح صارماً إذا طغى عقله على عواطفه، فيصير جسداً بلا قلب. وإذا أحبّ الإنسان بجنون فسيفقد ذلك التوازن، مما قد يعرّضه إلى سقطات سيئة في المفهوم الاجتماعي العام، ولكنها بريئة في عفويتها وحميميتها. إنها العودة إلى الطبيعة، إلى الحيوان الجميل داخل كل منا.

وقديماً سأل «اسبينوزا»[9]: هل نرغب في الأشياء لأنها خيرٌ في ذاتها، أم إننا نقتصر على تمجيدها وتبريرها إذ نسمي موضوعها «خيراً»؟ فالخير والجمال موجودان، وعلينا أن ننظر بإمعان إلى كل ما من حولنا وإلى كل تصرفاتنا، فكثير منها جميل، وخاصة الفنون المختلفة، ومنها الإغريقي على سبيل المثال بأشكاله كافة من مسرحيات «يوريبيدس» و«سوفوكوليس» و«أرستوفانيس» وملاحم «هوميروس» التي ما زالت تمنحنا متعة فنية، وتعتبر نموذجاً يصعب بلوغه في الأعمال الحديثة، وما زالت تلعب دوراً في البناء الفكري

والروحي للأجيال المتعاقبة، ويصعب ربطها بـ«الحياة الاجتماعية» في عصرنا الحالي. ولكنها في حقيقة الأمر وعي الأديب أو الفنان بالعالم الخارجي في ذلك العصر.

إن وظيفة الفن هي المحافظة على صدق وحقيقة الانعكاس عن الواقع، سواء أكان انعكاساً للطبيعة أم للمشاعر والوجدان، أم انعكاساً للفكر من خلال الصياغة الفنية، وليس المقصود بالانعكاس هنا «النسخ الفوتوغرافي»، وإنما ذلك الذي يحتوي على الروح والوجدان، والإخلاص في استيعاب الواقع الموضوعي، والإخلاص الجارف لإعادة صياغته في مضمون جديد من خلال الأشكال الأدبية المتعدّدة، مضيفاً الجمال البريء القادر على تطهير النفس البشرية من الدنس اللصيق بها منذ ألـم الـولادة. والـواقع ملـيء بـالحقائق التـي يـدخلها الفنـان فـي ذهنـه فيحوّلـها مـن المحـدود إلـى اللانـهائي، ويُعيـد إخراجـها بصـور شـتى، مضـيفاً إليـها مـن روحـه وإحسـاسه، جـاعلاً الاعتقـاد بـديلاً للحقيقـة... وذلـك هـو الإبـداع. لقـد كـان أفلاطـون يعتبـر الفـن محـاكاة للجمـال، ويـرجع المتعـة الجماليـة إلـى الانسـجام بـين شـكل العمل الفني وجمال الفكرة، فالمضمون الجمالي للعمل الفني يكمن في جمال التعبير وقوة التأثير.

وما الجميل والقبيح والمضحك والمأساوي إلا انعكاس لعلاقات الناس مع بعضهم بعضاً[10]، ولتفاعلاتهم الاجتماعية ولعلاقتهم مع الطبيعة. فعندما تستمتع بمشاهدة مكان جميل خلال تجوالك، يصبح المكان أكثر جمالاً إذا كانت محبوبتك بجوارك، ويزداد إبهاراً إذا كان الموضوع - محل الحديث - شيّقاً.

وإذا قفزنـا إلـى قلـب الـدوامة وتسـلّحنا بـالمنطق وسـألنا أنفسـنا: مـا هـو الجمـال، وهـل هـو ذاتـي أو موضـوعي، أم إنـه غـير مـوجود إلا فـي أذهـاننا؟ لا توجـد إجابـة عـن التسـاؤلات الكبـرى، ولكـن المحـاولات تقودنـا إلـى تلـمُّس الجمـال مـن خـلال عـدة مسـتويات، فنشـعر بـه مـن خـلال القـيم الحسّيـة التـي تتـولّد لـدينا لـدى رؤيـة الألـوان الجميلة - كالأحمر والأسود - ولدى سماعنا لأصوات البلابل ومشاهدتنا للرخام المنحوت وكل ما يجذب إليه البصر واللمس.

ونشعر بالجمال أيضاً من خلال القيم الشكلية لدى مشاهدتنا لواجهة مبنى جميل، والخطوط والتموّجات البديعة التي تخلقها الرياح في رمال الصحراء، ونشعر بالجمال من خلال القيم الارتباطية، وهي بلا شك أجمل القيم وأسماها. فلدى سماعنا لمقطوعة موسيقية معينة سنطرب أشد الطرب إذا كانت مرتبطة في ذهننا بمناسبة سعيدة في الماضي... ما زال الرداء ذو اللون البنفسجي يغمرني بالفرح بمجرد رؤيته، لأنه يستدعي أحداثاً جميلة، متجاوزاً المغالطات الوجدانية. فذلك الرداء حوَّل السماء الغاضبة إلى أخرى وادعة، والبحر الهائج إلى آخر متدفِّقٍ رقةً وحناناً، وبدا النسيم يداعب شعرها وغرقت في قوس قزح؟...

البشر مَيّالون إلى الكذب، ونحن نتألّم إذا كنّا صادقين، فمن منا أعلن عن حقيقة علاقاته الاجتماعية التي يصفها المجتمع بعدم الشرعية؟ ومن منا لم يخن زوجه ولو بالتفكير؟ ومن منا لم يشعر بالظلمة والسواد في داخله؟ ومن منا أعرب عن حقيقة مشاعره تجاه الآخرين؟ يأتي القبح من

الداخل إلى الخارج، من الصدق إلى الكذب، من الجمال إلى نقيضه، فنغرق أنفسنا في أشكال الفنون المختلفة لنتطهّر من جهة، ولنستمدَّ القوّة ونحيا بالكذب الصادق من جهة أخرى!

... «وكم هو رائع وجميل هذا الوجه»، تلك العبارة التي يتفوّه بها أي إنسان عندما يرى ما يدهشه، نجد نقيضها لذات الوجه من أناس آخرين. فالجمال نسبي، وما هو حسن لديك قد يكون سيئاً لدى غيرك، فما تراه أمامك جميلاً يستمد جماله مما هو أبعد من الشكل، كما المضمون والجوهر. فالأخلاق والمعرفة تظهر في الحقيقة الجمالية (الشكل)، والأخلاق هنا هي النُظُم الأخلاقية التي تحكم سلوك كلٍّ منا بغضّ النظر عن اتّساقها مع القيم الغيبية أم لا.

وتنسحب النسبية أيضاً على الانفعالات، فهي متغيّرة من شخص إلى آخر ومن لحظة إلى أخرى لدى الشخص الواحد، وتكون أكثر وضوحاً لدى الإناث نتيجة للتغيّرات الهرمونية التي تتم في الجسم الأنثوي. ويترتّب على ذلك أن التقويمات الأخلاقية بدورها متغيّرة وشخصيّة، فما يبعث الفرح في شخص معيّن قد يثير شجون شخص آخر، وما يراه الأول أخلاقياً قد لا يشاطره الآخر الرأي ذاته.

إن الرؤية الواقعية للأشياء تجعلنا لا نرى الجمال. فالجميل في الواقع يظهر جميلاً بسبب تدخّل خيالنا وعواطفنا التي توسِّع أبعاد الشيء وترفعه إلى المدى الرحب، والجميل هو ما نراه ونفهمه ونحسّه ونرغبه، وهو الذي يبعث فينا الفرح ويبعد عنا الحزن. والجنة هي الجميل المعشوق الذي يتحوّل إلى نار وقبح عندما يبعث فينا الحزن والأسى، فمن يمنح أدخلنا الجنة، ومن يمنع أدخلنا النار، وضللنا الطريق ما بين الجنة والنار.

ويتحسّس الإنسان الجمال من خلال حواسّه - خاصة في مجال الرؤية والسمع - ولا يمكن إدراك محتوى الشيء الجميل وجوهره بالبصر أو السمع، وإنما بالتفكير الإنساني القادر على النفاذ إلى قلب المعرفة.

فحبيبتك جميلة لأنك نَفَذْتَ إلى داخلها بفكرك وقلبك، وعرفت مكنوناتها وقيمها الداخلية، التي لا يراها غيرك من خلال شكلها الخارجي، والتي قد تبدو على غير تلك الدرجة من الجمال لدى الآخرين.

ولا يستقيم الحديث عن الجمال من دون التطرّق إلى الألوان، فمن يحسّ باللون يشعر بالجمال. والخاصّية الجمالية للون متعلّقة بالمضمون الذي يعكسه الشكل، فلا نستطيع أن نحسّ بجمال اللون إلا بعد أن نحسَّ بمضمونه وأهمّيته. ويزداد الشعور بالجمال في اللحظات الحميمة التي تتداخل فيها الألوان، حيث لا يمكن التمييز ما بين الأسود والأبيض وما بين الواقع والخيال. فمن يمتلك العقل الخالص يستحيل عليه تعريف اللون الأحمر، ومن يمتلك الخيال الخصب يستطيع وصف ذلك اللون على صعوبته.

يلعب الفن دوراً رئيساً في تنمية ذوق الإنسان، فيُطوّر إحساسه ويجعله أكثر قدرة على تحديد الجميل والقبيح، والخير والشرّ، وينعكس ذلك على محيطه الهادي فيُبدع في اختيار ملابسه وأثاث منزله، وترتقي تصرفاته. كما يسهم الفنّ في صقل مشاعر الإنسان، فنحن

نتعاطف مع حوادث العمل الفنّي المرئي أو المسموع ونعيش أحاسيس الأبطال، ونتألم للمصير الذي يؤولون إليه، ونحمد الله فنحن أفضل من البطل الذي تصرعه الآلهة في المآسي، ونشعر بتطهُّر أنفسنا من التشاؤم ويكبر فينا الأمل. ولدى سماعنا للموسيقى ينبعث داخلنا التفاؤل بالحياة ونتطهَّر بالأسى والحزن والعذاب والألم. وقد حدّد أرسطو وظيفة اجتماعية مهمّة للفن، فهو في رأيه يخدم في النهاية الراحة والتسلية، ويُطهِّر انفعالات معينة ويقدّم التعاليم الأخلاقية.

ونعتقد أن عصر الإنسان المتحضّر لم يبدأ بعد، وأن الصراعات في أي مجتمع تتراجع بارتقاء مرتبة الفنون فيه. فبالنظر إلى تفاصيل خريطة العالم نجد أشلاء الجثث تملأ المكان، وكذلك صراعات البشر والحروب. وما زالت رائحة العفن تنبعث من الموتى فيما الإنسان ملطّخ بوحل الخطايا والدماء تلوّث يديه. ولا نستطيع أن نكتم دهشتنا لدى رؤيتنا لمشاهد الحروب العبثية التي تجتاح كوكبنا وتجعل الإنسان بلا مأوى، من أجل حفنة دولارات، أو من أجل نفوذ زائل لا محالة. وما لم تُحَلّ مشكلة البشرية، بإحلال العدالة الاجتماعية وتقليل الهوة ما بين الأغنياء والفقراء ومنع ترسيخ الحدود القائمة بين الحضارات كفروق بين الرفاهية والمعاناة والتقدم والتخلّف، سنجد المجتمع البشري في طريقه إلى الانحلال والانفلات من القيم الأخلاقية وجميع النظم الاجتماعية التي تربطه. وما لم نمتلك رؤية نظرية لإعادة صياغة العالم من جديد واضعين نصب أعيننا العدالة الاجتماعية والحرية كأهداف ينبغي الوصول إليها، فسنصطدم بالجدار، والأَوْلى في هذه الحالة أن يقضي الإنسان حياته في مراقبة النجوم.

الزمن الضائع

عندما سأل الرب آدم: «هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها. فقال آدم: المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت. فقال الرب الإله:

ما هذا الذي فعلت؟ فقالت المرأة: الحية غرَّتني فأكلت... وقال للمرأة: - «بالوجع تلدين أولاداً، وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك»...

... «وقال الرب الإله: هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا، عارفاً الخير والشر. والآن لعلّه يمدُّ يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد. فأخرجه الرب الإله من جنّة عدن ليعمل الأرض التي أخذ منها»[11].

لا أحد يعلم متى تم ذلك، ولا يستطع أحدنا الادعاء بأن فكرة الخلود لم تخطر له على بال، ولكن كيف يكون الخلود للإنسان وهناك الزمن الذي يتربّص بنا ويحصدنا. أيكون الخلود بيولوجياً بالاستمرار من خلال الأبناء؟ أيكون الخلود اجتماعياً بالاستمرار بالأعمال الصالحة في المجتمعات؟ ولكن من منا يذكر مكتشف النار أو المعلّم الأول للحروف والكلمات؟!

وإذا انتقلنا إلى سراديب الميثولوجيا اليونانية، فالكون بدأ بالفضاء والفوضى، ثم انطلقت الأرض منبثقة من الفضاء، ووُلدت الأرض، النهار، ثم الليل والسماء والبحر، ثم جاءت بعد ذلك العمالقة، وهي مخلوقات ضخمة بشعة ذات عين واحدة في منتصف الجبهة، ولقد جسّدت كل ما هو ضخم وقوي على الأرض، مثل الجبال والزلازل وثورات البراكين، وكان أصغرها «كرونوس»، إله الزمن، الذي استطاع إخضاع العالم كله لسلطانه، وكان إلهاً شديد القسوة مجرداً من الرحمة لم يتورَّع عن افتراس أولاده، ولا يزال يحطّم كل شيء. لقد صوّروه حاملاً منجلاً بشعاً لجني حصاد أي شيء، وكل شيء، ولا مهرب لأحد من منجله ولا نجاة لنا منه.

وإذا عدنا بخيالنا إلى أجدادنا الأوائل قبل عشرة آلاف عام، لوجدنا أنفسنا محاصرين بالحيوانات المتوحّشة، منكمشين على أنفسنا، بالكاد تنتصب قاماتنا، نحيا في كهوف وسط غابات كثيفة نكاد لا نرى الشمس، وأدواتنا من الحجر، وأيادينا متمايزة، وأصابعنا قادرة على السيطرة على الأشياء، ولم نكن نحسّ بالزمن فكل الأيام متشابهة، والعالم تنتهي حدوده عند البحر والجبل، ودورة الحياة في صيرورة مستمرة لا متناهية تكاد لا تتوقّف عن الدوران، فكل ما هو حي جدير بالموت، والحياة مآلها إلى الهلاك.

وإذا أدرنا سفينة الزمن إلى الوراء 30 - 40 ألف عام، كان جدنا «الكرومانيوني»، صاحب الجمجمة الكبيرة والوجه العريض، الواقف مندهشاً دوماً حول ما يدور من حوله، يرعبه صوت الرعد وتخيفه الخفافيش، ولا يدري ماذا يفعل أمام البرق والأمطار الغزيرة، ولم يكن أمامه سوى الهروب إلى أقرب كهف. وإذا سبحنا في اتجاه الماضي إلى 50 - 70 ألف عام كان جدنا «النياندرتالي»، الذي كان دائماً يحاول الوقوف منتصباً لرؤية الحقيقة وكثيراً ما كان يفشل في مواجهتها، كانت جبهته منحنية إلى الخلف، وحجم عقله أصغر من الإنسان الحالي، فلم يكن يمتلك حينذاك الوعي، وكان يحيا في

قلق وشكّ فلم يكن يعلم لماذا يحيا الإنسان.

ولا نستطيع المضي قُدُماً من دون أن نحيك تاريخ أمّنا الأرض التي بدأت وتشكّلت في فجر الحياة منذ خمسة مليارات سنة، وفي ذلك العصر ظهرت القارات والمحيطات، وبدأت الكائنات الحية المعقّدة في الظهور قبل 700 مليون عام تقريباً.

وأعقب ذلك العصر عصر الحياة القديمة منذ 600 مليون سنة، وكانت أشكال الحياة قليلة وفي المحيطات فقط، فظهرت الأسماك، وغزت بعض النباتات، وبرفقتها بعض الحيوانات، اليابسة التي ازداد الزحف عليها، فانتهى ذلك العصر والأرض مليئة بالغابات الكثيفة.

وجاء الصيف الأبدي، وهو عنصر الحياة المتوسّطة الذي دام تقريباً 135 مليون سنة، وكان الطقس دافئاً ومنتظماً على الدوام، والزواحف تسيطر على الأرض بمائها ويابسها، وكان وزنها يعادل خمسة أضعاف الفيل الحالي، ولقد وجدت بقايا «للبرونتوصور» طولها 20 متراً ووزنها 30 طناً، وتحوّل الصيف الأبدي إلى نقيضه.

فغطى الجليد الأرض وتحوّلت السماء إلى اللون الأبيض فماتت كل المخلوفات الضخمة.

وها نحن نعيش الآن عصر الحياة الجديدة، وهو مستمر منذ 55 مليون سنة. ويبرز هنا السؤال: هل كانت الحياة والمخلوقات على الأرض تدرك الزمن؟ فملايين السنوات التي تحدّثنا عنها من عمر الأرض، وآلاف السنوات التي تحدّثنا فيها عن الإنسان، وكان الوعي ينحصر في وعي المكان، ولم تعِ الكائنات الحيّة الزمن فكان التاريخ تاريخ المكان، والتطوّر تطور المكان، إلى أن انفصل الذهن عن العقل البشري ووجد الوعي، فربط الإنسان ما بين العلاقات الخارجية والحوادث والظواهر، وأوجد قوانين نظرية خارجية تحلّل تلك العلاقة، فكان لا بد من إدراك الزمن. وفي البدء ربطت البدائية الزمن بحوادث جسام، كان يُقال بأن فلاناً وُلد يوم غرقت جزيرة كذا، أو فلاناً مات بعد اصطياد السمكة العود «الكبيرة»، بنحو كذا، فلم يكن الإنسان يدرك للزمن معنى. ومنذ إدراك الزمن زادت تعقيدات الحياة وأصبحت تصرّفات البشر أسيرة إطار الزمن الذي اخترعناه، ويظل الزمن الحقيقي في داخل كل منا. فعندما يعانق أحدنا حبيبته يشعر بأن الزمن تجمّد، وتمرّ الدقائق والساعات في ثوانٍ، وعندما يضع الحظ العاثر أحدنا مع شخص لا ننسجم معه، نشعر وكأن الدقائق التي قضيناها معه كالساعات الطوال. وصاحب القضية التي يعذَّب من أجلها بنقطة ماء منتظمة تسقط على رأسه، يشعر وكأن نقطة الماء صخرة كبيرة، وأن الزمن ثقيل كسيف مزدوج يمزّق الكبد. فعندما أرادت الآلهة تعذيب «بروميثيوس» لإعطائه النار للبشر، وهي من الأسرار الإلهية، صلبته على الجبل وجعلت الصقر ينهش كبده طوال النهار، لينمو ثانية في الليل ويُعاد نهشه في النهار. فهل زمن نهش الكبد كزمن الفتى الذي يمرح في البساتين؟... لا تسال نفسك كم عشت من السنوات، فربما تصاب بخيبة الأمل بأن ثلث عمرك قضيته في النوم، ولا تخجل إذا واجهت نفسك بالحقيقة، وأنت على مقهى الصراحة فإن العمر الحقيقي لا يتجاوز بضعة أيام، وبقية الحياة هي الزمن الضائع الذي ينساب ما بين أصابعك ولا تستطيع الاستحواذ عليه. سُحُب من الضباب تمرّ كالحلم وتفلت من دون أن تمسك بها، حورية بحر تثير الأحاسيس وتُلهِب المشاعر، وما أن تحاول الاقتراب منها لتقبيلها، تبتسم لك ساخرة وتهرب مع القمر.

ولو استطعنا الخروج من نفق أفكارنا الضيق، وحلّقنا إلى أعلى، ونظرنا من خارج الكون، فسنجد أن العمر الأكثر احتمالاً لهذا الكون يبلغ قرابة 15 مليار سنة، وأن عمر الأرض زهاء خمسة مليارات سنة، وأن خمسين مليون سنة مرّت على تشقّق القارات وتباعدها حيث تكوّن الوجه الحديث للكرة الأرضية، وماتت الزواحف وأصبحت الحيوانات ذات الدم الحار هي سيدة الأرض[12]، وذلك بعد أن مرّت الأرض بملايين السنوات من الصيف الحار، وقبلها ملايين السنوات من الفترات الجليدية، وأنه منذ نحو مائة ألف سنة ظهر عصر الحضارة الإنسانية القديمة، عندما استطاع الإنسان أن يستخدم الأدوات الخشبية بشكل بدائي، وأن العصر النحاسي بدأ منذ نحو ستة آلاف سنة والعصر الحديدي بدأ منذ ثلاثة آلاف سنة. وإذا قسنا تلك الأزمنة إلى عمر الكون المفترض فسنجد أن الإنسان صنع أدواته الخشبية منذ نحو ثلاث ساعات، وبدأ عصره النحاسي منذ نحو 12 دقيقة، والحديدي منذ ست دقائق. وأن السيد المسيح جاء منذ نحو ثلاث دقائق، وأن الحضارة الإنسانية بدأت منذ بضع ثوانٍ بخطوات سريعة، فأقام الإنسان علوماً حديثة وقطع أشواطاً متقدّمة في الصناعة والتكنولوجيا.

ولنكمل استراحتنا خارج الكون ولننظر إلى الإنسان، فسنرى حياته بالكامل منذ ميلاده وحتى مماته، عبارة عن جزء من الثانية بالنسبة إلى عمر الكون، ولو افترضنا وجود كائنات ذكية تحيا بمقاييس مختلفة، فستنظر إلينا كنظرتنا إلى الحشرة التي تولد وتموت في الليل ولا يتسنى لها رؤية النهار، أو الحشرة التي تولد وتموت في النهار ولا يتسنّى لها رؤية الليل، فكم هي تعيسة تلك الحشرة التي لم تشاهد جمال الصباح، وكم شقيّة تلك التي لم ترَ روعة الليل. ولا ندري ماذا نقول بالنسبة إلى الإنسان الذي يولد ويموت في لحظة كونية ولا يرى نهار الكون أو ليله.

منذ بداية العصر الحديث كان يُنظر إلى الزمن وكأنه نهر ينساب بمعدل ثابت لجميع الأشخاص والأشياء، إلى أن جاء «أينشتاين»، وأثبت، من خلال نظرية النسبية الخاصة، أن الزمن لا ينساب بالمعدل نفسه بالنسبة إلى راصدَيْن مختلفين يرصدانه من نقطتين مختلفتين، ولا يتحركان بالنسبة إلى بعضهما بأية سرعة نسبية. ولقد ضرب المثل الشهير بأنه إذا حدث انفجار في مجموعة «الجبار» في ليلة 17 مارس (آذار) العام 2000، نتيجة لانفجار «الجوزاء»، فلن يرى سكان الأرض هذا الانفجار في هذا التاريخ نفسه، لأن الجوزاء على بعد 300 سنة ضوئية من الأرض أي إن الموجات الضوئية الدالة على حدوث الانفجار ستصلنا في 17 مارس (آذار) العام 2م. وإذا كان هناك أحد على «الديوان» فسيرى الانفجار نفسه في 17 مارس (آذار) العام 2250، حيث إنه يبعد 250 سنة ضوئية عن الجوزاء، أي إن الحادثة الواحدة تحدث في كل هذه الأماكن في وقت يختلف من مكان إلى آخر وفقاً للمسافات ما بين الأماكن.

ولقد أدت نظرية أينشتاين في النسبية الخاصة إلى حقيقة أنه إذا تحرك راصدان بسرعة منتظمة أحدهما بالنسبة إلى الآخر، فإن الزمن في مجموعة كل منهما يظهر للآخر كما لو كان يسير ببطء. هذه الحقيقة أدت إلى ظهور «تناقض الزمن». ومرّة ثانية سنستعير من أينشتاين مثله الجميل، ولنفترض أننا ذهبنا معاً في رحلة فضائية إلى نجم «السماك الرامح»، الذي يقع على بعد 33 سنة ضوئية من الأرض، فإذا سارت السفينة بسرعة قريبة من سرعة الضوء فإنها تصل إلى ذلك النجم في

مدة تزيد قليلاً عن 33 سنة، وإذا عادت مباشرة فإنها تعود إلى الأرض ثانية بعد 66 سنة من مغادرتها لها.

ولما كانت السفينة الفضائية قد سارت بسرعة كبيرة بالنسبة إلى مقاييس الأرض، فإننا لن نشعر بأننا استغرقنا 33 سنة في رحلة الذهاب، وعندما نعود إلى الأرض فإنه سوف يبدو أننا لم نتركها سوى يوم واحد، في حين أنه سيكون قد مضى علينا 66 سنة بالنسبة إلى سكان الأرض، وقد لا نجد أحداً من أصدقائنا على قيد الحياة، فعمر كل من تركناهم قبل رحلتنا الفضائية سيكبر بمقدار 66 سنة، فلا منفعة من إغراق النفس في الفضاء للاحتفاظ بالشباب، ذلك أن الموت على صدر المحبوب وفي حضن المعشوق أجمل من الحياة في غياهب الفضاء، والحياة مليئة بالأسرار. والعذابات لن تؤدّي إلى فك الألغاز؛ فلنستمتع بزمننا قبل أن يهرب منّا، ولنعش الزمن مع الشخص الذي نريده لا الذي يريده الآخرون.

عالم بلا جريمة

بعد أن خلق «زيوس»[13] الإنسان أراد أن يخلق أنثى جميلة للإله «بروميثيوس»[14] فأوجدها من الطينة البشرية، وجاءت آية في الجمال والحسن، وأقبلت الآلهة فوهبتها فينوس من جمالها، ومينرفا من حكمتها، وديانا من رشاقتها، كما وهبها «كيوبيد»[15] من حبه، وأبولو من شعره، ثم نفخ فيها «زيوس» من روحه فدبت فيها الحياة، وسماها ربها «بندورا»، وحملها «هرمز»[16] هدية إلى بروميثيوس الذي رفضها، فتلقاها أخوه «ابيمثيوس». وعاشت بندورا كما تعيش الآلهة في لهو ومرح. وفي أحد الأيام، وبينما كان الزوجان يتناجيان، أقبل هرمز بصندوق هدية من زيوس إلى بندورا واشترط عليها ألّا تفتح الصندوق إلا بعد أذنه.

مرّت أيام وأيام ولم يأتِ الإذن الإلهي بفتح الصندوق، فنهضت إلى الصندوق مأخوذة بجماله وأسراره وفتحته، فانطلقت الأرواح الشريرة، خفاشٌ يحمل المرض، وآخر الفقر، وثالثٌ الجوع، ورابعٌ البخل وخامسٌ النفاق، وسادسٌ القحط، وسابعٌ النفاق، وثامنٌ الدناءة... إلى آخر الرذائل التي ما زالت موجودة بيننا حتى اليوم. وهكذا عرف الإنسان طريقه إلى الجريمة[17].

وعندما أعادت بندورا إغلاق الصندوق بسرعة، سمعت صوتاً من داخله يقول: افتحي لي حتى أشفي جراحكم. ففتحته لتخرج روح «الأمل» التي لولاها لما بقي أحد منا في الحياة، فلا حياة بلا أمل!

ومنذ انطلاق الرذائل يحيا الإنسان ومعه الجرائم، ومنذ أن وعى تاريخه وهو يحاول إعادة الأرواح الشريرة إلى الصندوق للإقلال من الجرائم وتوفير الحياة السعيدة. وتؤثّر تلك الأرواح الشريرة في سلوكياتنا وبقدر سيطرتنا على المناخ الذي تحيا به الرذائل يمكن النجاح في التقليل من الجرائم. ويستجيب الإنسان للموقف بأنماط سلوكية مختلفة تبعاً لتربيته وبيئته، ذلك أن لكل مجتمع معاييره الاجتماعية المختلفة التي يصوغها الناس خلال مسيرة حياتهم. فإذا انحرف أحد من أعضاء المجتمع عن تلك المعايير الاجتماعية فإننا نكون بصدد سلوك غير اجتماعي، وقد يكون ذلك الانحراف إلى الحد الذي يضع مرتكبه تحت طائلة القانون، أي أن ذلك السلوك غير الاجتماعي يُكَوّن أركان جريمة ما...

ومنذ البدء، تعمل البشرية على القضاء على الجريمة أو الحدّ منها، ولقد استخدمت في ذلك أساليب عديدة ضمن مفهوم العقاب، فأغرقت بعض المجرمين وأحرقت بعضهم أحياء وصلبتهم أو خنقتهم أو قطّعت أوصالهم، وأهانت الجسد البشري إلى حد اختراقه بالخازوق، وعلى الرغم من ذلك لا تزال ظاهرة الجريمة تندفع لكسب مواقع جديدة.

... ولعل من أسباب الفشل في مكافحة الجريمة تلك النظرة ضيّقة الأفق التي تعدُّ الجريمة مشكلة من مشاكل القطاع الجنائي وحده، وتعوِّل عليه أن يجد حلولاً لهذه المشكلة. إلا أن التقليل من معدلات الجريمة يعتمد بشكل أساسي على توفير الحلول للمشاكل الاجتماعية

والاقتصادية والثقافية التي تؤثر في غالبية السكان، ومكافحة الجريمة لا تبدأ بالفرد بقدر ما تبدأ بالمجتمع.

يرتكز التصوّر الواقعي للتخطيط لمنع الجريمة على التعرّف على واقع الجريمة من خلال البيانات والإحصاءات، حيث يمكن استخدام تلك البيانات في تحديد اتجاهات الجريمة... والعمل على دراسة العلاقة بين العمليات الإنمائية، كالتحضّر والتصنيع ونمو السكان والهجرة وغيرها من الاتجاهات الديموغرافية، التي لها تأثير على الزيادات المحتملة في معدلات الإجرام، من أجل ضبط هذه الظاهرة والتحكّم في مساراتها والإقلال من معدلاتها.

ويتمثّل النهج الأفضل لمنع الجريمة في اتباع التخطيط البيئي، حيث يفترض هذا النهج وجود مجموعة معينة من الظروف تؤدّي إلى احتمال زيادة ارتكاب أنواع معينة من الجريمة، لذا فإن إحداث تغيير في الظروف، أي «البيئة»، من شأنه أن يؤدّي إلى خفضٍ في حالات وقوع تلك الأنواع من الجرائم... فالإنسان وليد بيئته، تربطه بها علاقة التأثّر والتأثير المتبادل، وبالتالي فإن إزالة الظروف المعيشية التي تحط من كرامة الإنسان، مثل الفقر والأمية والتمييز العنصري واللامساواة بمختلف أشكالها ومستوياتها، يؤدّي حتماً إلى الإقلال من معدلات الجريمة من جانب، واحتواء السلوك الإجرامي داخل حدود مقبولة، من جانب آخر...

ولضمان نجاح التخطيط لمنع الجريمة، يجب ربطه بالخطط الإنمائية الشاملة. فوضع برامج لتعليم المجرمين مهارات تقنية مطلوبة في سوق العمل، سيقلّل من احتمالات عودة هؤلاء المجرمين إلى الجريمة مرة أخرى، وفي الوقت ذاته فإن اكتسابهم لتلك المهارات يسهم في تحقيق برامج التنمية على المستوى الوطني. وينبغي علاج التفاوت بين أنماط التغيير الاقتصادي السريع، وثبات القوانين أو تغيُّرها البطيء بما لا يتناسب مع التطورات والمفاهيم الاجتماعية الصاعدة بفعل التنمية.

ويمكن أن يكون هذا التفاوت مصدراً لمشاكل كثيرة. ومن أجل الحدِّ من هذا التفاوت والتقليل من التخلف الاجتماعي، فإنه يتعيّن تحسين النظام القانوني وتقويمه وتعديله بصفة مستمرة بحيث يواكب الاحتياجات الاقتصادية والاجتماعية المتغيرة...

ومن العوامل المساعدة للجريمة: الهجرة. فالطيور تهاجر تاركة أوطانها هرباً من قسوة البرد إلى الدفء، ويهاجر الفلاح المعدم من قريته إلى المدينة بحثاً عن الرزق، ويترك ابن المدينة مدينته إلى عواصم أخرى من العالم أملاً في تحسين ظروف معيشته، ويحمل المهاجر والنورس أفكار ومعتقدات البيئة المحلية التي نشأ فيها، وغالباً ما تختلف تلك الأفكار والمفاهيم مع ما هو سائد في البلد المستقبِل، وينشأ نتيجة لذلك صراع بين الثقافات تنعكس آثاره على جيل الآباء، وتكون أكثر وضوحاً عند الصغار. فاختلاف المفاهيم وتناقضها يؤدي إلى اختلال في القيَم وعدم ثقة فيها، ما يدفع بالأحداث إلى دائرة الجنوح...

ويؤدّي الاتجاه السائد نحو تحوّل المدن الكبرى والعواصم إلى مدن متضخمة، إلى زيادة معدلات الهجرة إلى تلك المدن، فيظهر نتيجة لذلك قصور في قطاعات عديدة كالصحة

والتعليم والإسكان، وغالباً ما يفشل المهاجرون في الحصول على مصادر رزق شريفة، فيلجأون إلى الطرق غير الشرعية لسد احتياجاتهم. ومما لا شك فيه أن العمل على منع الجريمة في ظل حركات الهجرة الإقليمية والوطنية والدولية، يتطلّب أن تكون حركات الهجرة مخطَّطاً لها، وأن تُنفَّذ في إطار التنمية الوطنية الشاملة، مثل إقامة مدن صناعية خاصة أو إنشاء مناطق زراعية حديثة، بغية زيادة الموارد الوطنية وتنظيم الهجرة. واستيعاب المهاجرين ضمن خطط التنمية، من شأنه أن يؤدّي إلى رفع مستوى الحياة لدى المهاجرين وإلى خفض معدلات الجريمة.

كما أن الأمّية تلعب دوراً في ارتفاع نسبة الجريمة، وقد دلّت الدراسات على أن نسبة المجرمين بين الأميين تبلغ أكثر من ثلاثة أضعاف عدد الذين تلقّوا دراسة ثانوية أو أعلى منها، أي إنه كلما ارتفع مستوى التعليم في أحد القطاعات، انخفضت نسبة الجريمة في ذلك القطاع. ولا يمكن اعتبار هبوط المستوى التعليمي في حد ذاته، دافعاً وحيداً لارتكاب الجريمة، إلا أن إحساس الإنسان بانعدام الأمن، إضافة إلى انخفاض الدخل الفردي ومحدودية الفرص المتاحة للعمل، قد يدفع باتجاه معارضة المجتمع والتمرد عليه... ولمنع الجريمة، فإنه من الأهمية بمكان، أن توضع الخطط والبرامج الحقيقية والجادّة من أجل محو الأمية والعمل على إدخال تعديلات على مناهج التعليم العام ونظامه في الدول النامية، بحيث تساير التقدم التكنولوجي الذي وصلت إليه دول العالم المتقدّم، وأن توضع برامج التعليم وفق مقتضيات الواقع وفي إطار التنمية الوطنية والاحتياجات الفعلية للدولة. فالتباين بين اتجاه النظام التعليمي وبين فرص العمل المتاحة قد يؤدّي إلى السعي لانتهاز الفرص غير المشروعة والوقوع في براثن الجريمة...

إن التعرّض للعلاقة ما بين وسائل الاتصال بالجماهير، كالكتب والصحف والمجلات والأجهزة الإذاعية المسموعة والمرئية والاسطوانات وأشرطة التسجيل الصوتية وأشرطة الفيديو والأفلام... وآثار هذه الوسائل على عقلية المشاهد ونمط تفكيره، مسألة شائكة وشديدة التعقيد. نحن جميعاً نتأثّر بأجهزة الإعلام وما تبثّه من معلومات، إلا أنه من الصعوبة أن ندرك حجم هذا الأثر على سلوكياتنا، وبات من المؤكد أن وسائل الإعلام تلعب دوراً خطيراً في تكوين مفاهيمنا وتغيّرها.

وعلى الأجهزة الإعلامية الواعية إجراء دراسة وافية لكل عمل إعلامي قبل تقديمه إلى الجمهور، وبصفة خاصة تلك الأعمال التي تتناول موضوعات الجريمة والإجرام، بحيث لا تعرض الأعمال التي تظهر المجرم بالشخصية المتكاملة والقادرة على الاستحواذ على عطف ومؤازرة الجماهير، أي يجب ألّا تُعرض الأعمال التي تُظهِر المجرم بالشخصية التي ينبغي الاحتذاء بها. وفي هذا المضمار أيضاً، ينبغي عدم إظهار رجل الشرطة على أنه الشخصية القادرة على التغلب على كل المعوّقات، والذي يمتلك قدرات جسدية وعقلية متميّزة، والذي يعمل بلا كلل، فإن ذلك يثير في نفوس الجماهير الإحساس بالشفقة تجاه المجرم، ولا بأس من إظهاره بصورة الرجل العادي الذي يكافح الجريمة والمجرمين.

إن فكرة العقوبة قديمة قِدَم الجريمة وملازمة لها، ولقد تطوّر مفهوم العقوبة والهدف منها عبر التاريخ إلى مستوى لا يخفى على أحد، فاستمرت النظرة إلى العقوبة من عهد «سينيكا» إلى «أرسطو» باعتبارها وسيلة لإخافة الفرد، ولقد تطوّر مفهومها في عهد

«مونتسكيو» و«روسو» و«بكاريا» باعتبارها أداة قمع. وبدأت الغاية من العقوبة تتحوّل تدريجياً إثر قيام ثورة الإصلاح العقابي في القرن الثامن عشر، حيث أصبح الهدف الأساسي من العقوبة إيقاظ ضمير الجاني ودفعه إلى التكفير عن ذنبه. بيد أن تحولاً عميقاً وشاملاً قد جرى في أهداف العقوبة وغاياتها على أيدي حركة الدفاع الاجتماعي التي ترى أن هدف العقوبة هو تأهيل الجاني وإصلاحه وتقويم سلوكه، بهدف إعادته إلى المجتمع مرة أخرى كإنسان سويّ قادر على التعامل والتعايش والتكيف والاندماج...

لا شك أن التنفيذ العقابي الذي يرمي إلى إيلام الجاني وإيذائه والانتقام منه، قد يدفع به إلى العودة مرة ثانية إلى حظيرة الإجرام والتمرّد على المجتمع، نتيجة لما لاقاه من معاملة قاسية وسيئة. وعلى ذلك، فإن التنفيذ العقابي الحديث يعامل المتهم طبقاً للقواعد الإنسانية بما يتّفق مع المواثيق الدولية الخاصّة بحقوق الإنسان، ويجب أن يتمَّ ذلك في ضوء التنمية باعتبار أنه تأهيل إنساني للجناة للعودة بهم إلى الحياة الاجتماعية السويّة... ويجب أن يُبنى على أسس علمية وأن يؤمن للمسجونين مستوى معيشياً داخل السجون يليق بالحياة الكريمة، وأن يعمل على ربط المسجونين بالحياة الاجتماعية... فالكفاح ضد الجريمة هو إحدى مهام المجتمع الرئيسة، ولخوض هذا الكفاح ينبغي التسلّح بالوسائل كافة، منها ما هو قبل ارتكاب الجريمة ومنها ما هو بعد الارتكاب، ويجب أن يتمَّ ذلك بالأساليب والطرق الإنسانية والحضارية من دون تقطيع أوصال المجرمين أو تشويههم، فالهدف حماية المجتمع والأفراد من الجريمة في إطار احترام القيم الإنسانية... فهل من البطولة والفخر أن يحمل الإنسان رأس أخيه بين يديه ليلقي به على قارعة الطريق؟!

أين تنتهي الأسطورة وأين يبدأ التاريـخ؟

على الرغم من كل التحذيرات التي أرسلها زيوس، زعيم الآلهة في الميثولوجيا الأغريقية، للبشر، فإنهم لم يرتدعوا ولم يسيروا على طريق الخير، وإنما بقوا أسرى للذّة ولغواية المال. وبعد أن أعْيَتْهُ الحِيَل لإصلاحهم، دعا جميع الآلهة إلى اجتماع طارئ للتباحث بشأن مصيرهم، فاختلفت الآراء... ورأى زيوس أن يحرق الأرض بمن عليها، إلا أن البعض نبّهه إلى خطورة ذلك على مركز الآلهة، واقترح آخرون إغراق الأرض بالماء، فقوبلت الفكرة بالاستحسان. هاجت البحار وماجت، وطاولت الأمواج عنان السماء، وتسابقت الأنهار في الوصول إلى مصبّاتها، واتسعت رقعة المياه، وانحسرت اليابسة، فعلقت الأسماك على أغصان الأشجار، واصطدمت الحيتان بالجبال، ولم يتبقَّ إلا مركب صغير على قمة جبل ساحر يتهادى محاطاً برعاية الآلهة وعلى متنه «ديو كاليون» الصالح و«بيرا» التقية، ولم يستطع زيوس إهلاك عباده المخلصين فأبقى عليهم.

وقد روّع «ديو كاليون» و«بيرا» ما رأياه من أهوال المياه عندما تغمر اليابسة، وأحوال البشر والحيوانات البائسة التي أخذت تقاوم الغرق دونما فائدة، وإذ بزيوس يرقّ لحالهما، لتقواهما ولصلواتهما التي لم تنقطع، فأمر «بوسيدون» إله البحار، بأن يسحب المياه إلى قيعان المحيطات، فظهرت الأرض الرطبة من جديد، وجرّ «أبولو» عربة الشمس الذهبية إلى الأفق فأينعت الأشجار وجفّت المستنقعات.

فزع «ديو كاليون» و«بيرا» عندما وجدا نفسَيهما من دون أهل أو أصدقاء؛ فالأرض من دون البشر يصعب العيش عليها. وتضرّعا إلى الآلهة من أجل إصلاح ما حاق بالجنس البشري، فأوحت لهما بالأمر الإلهي: «أخرجا من معبدي، وضعا على رأسيكما غطاء، وتخفّفا من الأحزمة التي تشدّ ثيابكما، واقذفا وراءكما عظام أمّكما الجليلة».

ولقد فطن «ديو كاليون» إلى أن الأم الجليلة المعنية هي الأرض، وأن تلك العظام ليست غير الأحجار التي في باطنها، فهبطا من قمة الجبل بعد أن تخفّفا من أحزمتهما وأخذا يلقيان بالأحجار وراءهما، وكان كل حجر يلقيه «ديو كاليون» يأخذ صورة رجل، وكل حجر تلقيه «بيرا» يأخذ صورة امرأة.

حين يمعن المرء التفكير في تلك الأسطورة ينكشف له أنها لم تقع إطلاقاً، ولكنها ليست تافهة بل لا تخلو من الحكمة، كما أنها ليست ثمرة خيال محض نسجها إنسان يهذي.

وبمقدورنا أن نفهم لماذا اختلق الإنسان هذه الأسطورة، وهي تحمل دائماً الحوادث والوجود وتداعياته خارج الزمن وخارج التاريـخ. ولذلك يختلط علينا تحديد أين تنتهي الأسطورة وأين يبدأ التاريـخ؛ فالأسطورة تعطي الإنسان وَهْم فهم الكون ووَهم معرفة الحقيقة، وتحاول أن تفسر الظواهر الإنسانية والطبيعية. أما التاريـخ فيعطينا تسلسل الحوادث والتشديد على المعنى والمحتوى الكامن في تسلسلها، وهو يدخلنا في الزمن في حين تُخرجنا الأسطورة منه.

إن المرء غير المدرك للأساطير، هو الذي يعيش بالأساطير الكبرى. فالفكر يستعين بالرموز من أجل

محاولة إدراك الواقع الحقيقي للأشياء، لأن الوجود يتجلّى في صوَر عديدة، وقد تكون متناقضة في بعض الأحيان. والحياة مليئة بالأساطير التي تحكم مواقف الإنسان تجاه الحياة نفسها، من دون أن يعي تأثيرها فيه... وكل وجود هو وجود مؤقت، وما هو موجود مصيره الزوال، والموت هو الحقيقة الخالدة والمصير المحتوم. وإذا نظرنا إلى مفردات الوجود كالإنسان الفرد، فهي ظل الوهم، لأن بقاءها - قياساً إلى إيقاعات الكون - هو لحظة كالومضة التي تضيء لثوانٍ ثم يبتلعها العدم وتختفي... وكل مكانة يتبوؤها الإنسان تافهة، إذا ما أدرك الموقع الذي يحتله قياساً إلى الكون، أو إذا أدرك أن الطريق إلى الحياة، على الرغم من اتساعها، يمر عبر ممر ضيّق وحَرِج في آن معاً.

فالإنسان كائن تاريخي محدّد بزمانه وتاريخه الذي يحياه بعيداً عن زمان آبائه وأجداده، وبعيداً عن مكان غيره من المعاصرين له والمختلفين عنه في ثقافتهم وتركيبتهم التاريخية.

وعلاقة الإنسان بمحيطه البيئي والاجتماعي والحياتي بشكل عام، وعلاقته بكل ما هو آخر، يتم إدراكها من خلال أبواب الحواس الخمس، فهي الممر إلى الإدراك الذي يختلف من شخص إلى آخر وفقاً لمستوى وعيه الذي هو محصّلة لتجربة عملية وتربية نظرية.

ويجدر بنا التفريق هنا ما بين أمور موضوعية جرى الاتفاق عليها كالألوان؛ ذلك أن من يرى اللون الأسود أو الأحمر يدرك أن هذا هو اللون ذاته المقصود، وتبقى القيمة الارتباطية للون - أي المعنى - هي محصّلة تجارب سبق أن خاضها الشخص، ومن خلالها يتولّد لديه الإحساس بجمال اللون أو قبحه، وكذلك الدائرة أو المثلّث أو المربع. الجميع متفقون على أن الشكل المقصود هو دائرة، ولكن وجهات النظر تختلف من شخص إلى آخر حول كون الدائرة جميلة أو قبيحة، فمدلول المعنى محل اختلاف وشكله متّفق عليه.

والحواس تمارس علينا الخديعة، فعندما ننظر إلى السماء نراها زرقاء، ومهما صعدنا إلى الأعلى فلن نرى السماء أو الزرقة. وكذلك عندما ننظر إلى الأشياء البعيدة نجدها صغيرة، وكلما اقتربنا منها نجدها كبيرة. فالحواس تعطينا معرفة منقوصة، وقد تكون مراوغة. وهكذا فالمعرفة الكلّية خارج نطاق حواسنا ولا نستطيع إدراكها إلا بالعقل، وعلينا ألّا نضع كل ثقتنا في حواسنا، فالإنسان حيوان مقيَّد بأبواب المعرفة الخمس ومحكوم بغرائزه. واستخدامنا للعقل يستدعي صرامة ذهنية حادة لإعمال المنطق على كل ما هو غير منظور وإخضاعه للمعقولية كمقدّمات تؤدّي إلى نتائج منسجمة مع تلك المقدّمات.

وعودة إلى الأسطورة، تلك الصيغة الإبداعية التي تنزع الإنسان من زمانه الدنيوي، وتنتقل به إلى العالم المقدّس، العالم الذي يرتاح فيه إلى الوهم. فتلاوة الأسطورة تمحو الزمن الحاضر وتُخرِج الراوي والمستمع إلى وهم الحقيقة التي يبحث عنها الفرد لإنقاذه من رتابة الحياة وفنائها، وتلوّح له بالخلود. وهي تلعب الدور نفسه الذي يلعبه التطهير من الخطايا ومحو الماضي بالاعتراف بالذنوب أو ذبح كبش فداء.

والطقوس المقدّسة هي خروج من الزمن الدنيوي إلى الزمن المقدّس، فاليوجا تطلق على الرياضة الصوفية التي يؤدّيها حكماء الهند، وهي خروج من الزمن الدنيوي إلى الآخر الكوني بهدف الاتحاد بالروح الكونية. والبوذية، وهي تطلق على الخير الأعلى، تسعى للخروج من الزمن الدنيوي بنكران الذات لبلوغ مستوى «النرفانا» وفناء الذات في الكل، وكلما ازداد المؤمن خشوعاً في صلاته ازداد خروجاً من الزمن الذي لا وجود لشيء خارجه. وما قد وقع في الماضي الذي تفصلنا عنه مسافة زمنية هو من القوة بحيث يجعلنا نقول إنه ذو جبروت من حيث تمامه، وإنه ضعيف في آن واحد، لأنه صار في العدم... وما إن تستكمل قراءة هذه الكلمة حتى يكون الماضي قوة قد ابتلعها، وسرعان ما تصاب بتوتّر توقّع المستقبل وقلق الخوف من الآتي.

تفسّر الأسطورة في نهاية المطاف كيف جاء البشر إلى الوجود، وكل الحضارات لها أساطير حول الخلق، وهي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بإعادة تأويل الماضي، كما أنها تلعب دوراً في استشراف المستقبل، وتحاول أن تحدّد إلى أين نحن ذاهبون... وتلخّص أساطير كل مجتمع مجموعة خطاباته الرمزية التي تخلق هويته، وتكون جزءاً أساسياً من تكوينه الثقافي. وتكمن قوة الأسطورة في ارتدائها قناعاً من الخيال يخفي الحقيقة المتوقّعة التي يمكن أن يُعاد تأويلها على ضوء الحوادث الواقعية الحاضرة. وغالباً ما تعتمد النخب الحاكمة على القوة المعرفية لرموز الأساطير وتأويلها لإضفاء الشرعية على سلطانها... والأمثلة كثيرة؛ ذلك أن عصراً كاملاً من أهم عصور مصر القديمة (عصر الرعامسة) - مثلاً - قد بدأ مستنداً إلى تأويل الأسطورة ومحاولة استثمارها لإضفاء الشرعية السياسية، كما في حال مؤسّس الأسرة (سيتي الأول)، الذي بدأ حكمه لمصر بقصة حكاها وحرص على نشرها... قال إنه كان نائماً بين يدي أبي الهول، فجاءه هذا الأخير في الرؤيا، وكلّفه حكم مصر وإخراجها من حالة الفوضى التي سبقت عصره، فامتثل سيتي الأول للأمر! ولولا هذا التوظيف للأسطورة ما كان للمصريين القدماء أن يرضوا بحكم سيتي، الذي كان على دين (ست)، الذي يعتبر في الوادي إلهاً للشر، ومعادياً للإله المعبود في وادي النيل: حورس.

وعليه، فلا وجود لأسطورة سيئة وأخرى حسنة، ولكن التأويل هو الذي يضعها في هذه الخانة أو تلك. ومن يحاول أن يهدم الأسطورة فإنه يشيّد أخرى على أطلال الأولى. ومن منا يجرؤ أن يجرح الفضاء؟ إنها محاولة الإنسان المستمرّة لتحقيق ما لا يمكن تحقيقه، فكيف الوصول إلى اليقين في عالم يموج بعدم اليقين؟

في مدح المرآة

في البدء لم تكن هناك مرايا، ولم يكن الإنسان قادراً على رؤية نفسه. وتحكي الأسطورة الإغريقية أن نارسيسوس Narcissus، هو أول شخص استطاع أن يرى نفسه، ذلك أنه لم يكد يبلغ السادسة عشرة من عمره، حتى أخذ يُحرك الرغبة لدى الفتيان والفتيات على السواء، لجماله وطراوته. وفي إحدى ليالي الربيع المقمرة، شد بجماله انتباه الحوريّة الثرثارة «إكو» Eo، التي لا تستطيع سوى ترديد نهاية الكلام الذي تسمعه، ولقد خذلها نارسيسوس بغروره وكبريائه، وأبت عليها كرامتها إلا أن تختبئ في الغابة، ولم يعد يراها أحد، وإن بقي الجميع يسمع صوتها يتردّد في الوديان والجبال. ولم تكن «إكو» هي الوحيدة التي حطّم نارسيسوس قلبها، لقد سبقها الكثير من العذارى والفتيات، حتى تضرّعت إحداهن إلى السماء أن يقع نارسيسوس في شباك حبّ لا يخرج منه سالماً.

في أحد الأيام دفعه ظمأه إلى غدير عذب، فركع على ركبتيه وأطل برأسه، فإذا بصورته المنعكسة على الماء تأسر لُبَّه، فافتتن بها وخالها حقيقة، امتلأت نفسه إعجاباً بالآخر، فحاول ملامسته وتقبيله، إلا أن الماء المراوغ لم يحقّق له أمنيته. لم يستطع نارسيسوس مغادرة المكان، وأخذ يحملق في الصورة غير مدرك أنها خيال، وكلما حاول الإمساك بها، هربت منه.

وفي ومضة صدق، اكتشف نارسيسوس الحقيقة، وتأكد له أن ما يراه ليس سوى صورته منعكسة على صفحة المياه، فتمنّى أن ينفصل عن جسده، وتداعى فوق العشب على ضفاف البحيرة مغمضاً عينيه إلى الأبد، وإذا بزهرة نرجس تتفتّح في المكان الذي مات فيه.

منذ تلك اللحظة اكتشف البشر المرآة كعاكس للشكل، وكطريق لمعرفة الذات.

فالمرآة هي اقتراب من الحياة بما تعكسه من صورة لموجود، وهي ابتعاد عنها بما تحقّقه من صورة ذهنية، بواسطتها نقترب من الأشياء ونبتعد عنها في آن معاً.

والمرآة صادقة، فهي لا تعكس سوى الموجود. هل شاهد أحدنا مرآة تعكس شيئاً غير موجود؟ فالمرآة في الطبيعة هي المياه الصافية، أو أي سطح قادر على أن يعكس ما هو أمامه. والمرآة الاصطناعية، هي المصقولة التي لا يوجد مكان فيه بشر إلا وتجدها بداخله. والمرآة المجازية، هي نحن، فكل منا مرآة لآخر، المحبوب مرآة الحبيب، «والمؤمن مرآة أخيه»، والقمر مرآة لأشعة الشمس. وهي نقطة التقاء الرائي والمرئي، وبوابة الإنسان لمواجهة نفسه وجهاً لوجه. ويكتمل دور المرآة لدى النظر فيها والتعمُّق في النفس المواجهة لها، وكما يهتم المرء أمامها برعاية جسده وتجميله، عليه أن يدعم ذلك بتجميل الداخل، ذلك أن المرآة لا تقدّم شيئاً جديداً، وإنما تعكس ما هو موجود، وتعطي الرائي الفرصة لتحسين المرئي، وهي جديرة بالاحترام على رغم عدم أمانتها أحياناً، فاليد اليسرى في المرآة هي يدك اليمنى، واليد اليمنى فيها هي يدك اليسرى في الواقع. ولقد استخدمت الأسطورة الإغريقية المرآة في أحيان عدة، فكانت المخلوقة الغريبة «الجورجونة ميدوسا»، والتي يتكوّن شعرها من الأفاعي، تحيل كل من ينظر إليها

إلى تمثال حجري، وفشل الجميع في قتلها، فاحتال بيرسيوس عليها بأن نظر إليها من خلال الترس البرونزي الذي كان يحمله على ذراعه اليسرى، مستغلاً إياه كمرآة، فقتلها وهي نائمة من دون أن يواجهها عيناً بعين.

والأسطورة، وهي تفسير لحقائق موجودة تعلّل وجودها، لم تخْلُ، على مستوى شعوب العالم، من المرآة. فالكهنة، أو السحرة، أو العرّافون يجلسون وأمامهم مرآة بلورية يحدّقون بها، ليعرفوا الغيب ويقرأوا الطالع. ومع تطوّر العلم، تطوّرت المرآة وتعلمت قول ما هو غير حقيقي.

فالمرآة المقعَّرة تظهر الأشياء أكبر مما هي عليه في الواقع، إذ تجعل الصغير كبيراً. والمرآة المحدّبة تجعل الكبير صغيراً. وهكذا فإن الإنسان مرآة للآخر، والبعض منا يجعل من الآخر كبيراً، وإن كان في الواقع صغيراً. والإنسان المرآة أيضاً، قد يجعل الكبير صغيراً، وإن كان في الواقع كبيراً.

واستخدم العلم الحديث المرآة لتوليد الطاقة، فالسخّانات الشمسية والمحطات الفضائية تستخدم المرآة لتجميع أشعة الشمس وتحويلها إلى طاقة، والسفن الفضائية والتلسكوبات تستخدم المرآة لسبر أغوار الفضاء. ولقد حاول العلماء السوفيات وضع مرآة ضخمة في الفضاء لإنارة الجزء المظلم من الكرة الأرضية، عن طريق عكس أشعة الشمس عليه، إلا أن التجربة مُنيت بالفشل، وربما تنجح مستقبلاً. وعلى الرغم من أهمية المرآة، إلا أنه حتى الآن لم يُكتب تاريخ لها، إلا أنه من المعروف أن المرآة كمعدن مصقول، وجدت في عصر الفراعنة، كما أن المرآة الحديثة التي نستخدمها حالياً، صُقلت في مدينة فينيسيا، في بدايات القرن السادس عشر.

لنتخيّل معاً عالماً بلا مرايا، ماذا سيحدث عندئذٍ لسائقي السيارات؟ وكم من الحوادث والكوارث ستقع؟ ومن ينظر إلى المرآة ويرى قبحاً، فليجمله بمحاسن الأخلاق! ومن ينظر إلى المرآة ويرى جمالاً، فليحافظ عليه بالابتعاد عن الموبقات! وللمرآة الفضل في التأمل، إذ يصعب النظر إليها من دون إعمال الفكر، ولو للحظات. وهي كالمحبوبة التي لا يخجل أحد من الوقوف عارياً أمامها، وربما الإتيان بحركات غير جادة، ثقة بأن أحداً لن يراه سواها، أي إن الرائي والمرئي في آن معاً، وما المرآة إلّا الوسيط الصامت.

والمرآة لا تعكس واقع الشيء الذي يقف أمامها، كالضوء عندما يسقط على شيء يلقي بظلاله، كما لا نستطيع الإمساك بالظل، لا نستطيع الإمساك بالصورة.

ويبقى الأصل في الواقع، والصورة في اللاواقع المنظور، وهل من الممكن أن يكون الوجود بما يحتويه من موجودات، عبارة عن ظلال أو صور لواقع آخر لا ندركه؟

ومن مزايا المرآة، أننا إذا وضعناها على جدران الغرفة كافة، باستطاعتها صنع جيش من الأشخاص من شخصٍ واحدٍ يدخل تلك الغرفة. وسنرى الشخص بأعداد لا نهائية، وصور بلا حدود لواقع محدود. وهل بإمكان أي شيء آخر غير المرآة فعل ذلك؟ إن المرآة تدفع بنا إلى تصوّرات جديدة، بدلاً من الرتابة والملل في الواقع الجاف، وكم ستكون الحياة مملّة من دون مرآة؟ فانعكاس الأشجار على ضفاف البحيرة هو الجمال وليس البحيرة في حد ذاتها أو الأشجار بعينها.

كما لعبت المرايا دوراً عظيماً في تنمية الإحساس بالذات، ومعرفة النفس على نحو أفضل، ورؤية شكل الشخص كما يراه الآخرون، فقد لعبت دوراً في الأدب، ولعل أشهر مرآة أدبية: مرآة أوسكار وايلد، في روايته «صورة دوريان غراي»، وفيها يرسم السيد بازيل هولوورد صورة رائعة الجمال لدوريان غراي، الذي أعماه حب الدنيا فتمنّى أن تحمل الصورة خطاياه، وأن يحتفظ بشبابه وجماله إلى أن يموت، فحقّقت له الآلهة أمنيته، وأصبحت سلوكيات دوريان وخطاياه تنعكس على الصورة، فصارت المرآة روح دوريان وضميره الحي.

ومع مرور الزمن تحوّلت الصورة إلى شكل وحش ممسوخ، وكان دوريان يدخل إلى الغرفة المغلقة، حيث الصورة، حاملاً مرآة، ينظر تارة إلى الصورة المملوءة بالدم والتشوهات، وتارة أخرى إلى المرآة، فيرى وجهه الجميل. بدأ يعشق نفسه من خلال المرآة، وقرّر في لحظة غضب أن يقتل ضميره الحيّ، بأن يمزّق الصورة بمدية سبق أن قتل بها راسم الصورة، فأمسك بالمدية وطعن بها الصورة، فمات في اللحظة نفسها دوريان غراي، وعادت للصورة نضارتها وجمالها لحظة رسمها، وظهرت التشوّهات والقبح على وجه دوريان.

تلك الحكاية توضح أن إدراك الإنسان لذاته، مرهون بإدراكه لجسده، الذي يتعمّق من خلال المرآة، فانظر إلى المرآة وتأمل وأمعن التفكير، فقديماً صوَّروا آلهة الحكمة على شكل سيدة تتأمل ذاتها من خلال المرآة.

تنمية الخيال

التنمية بمفهومها العام هي الجهود المنظمة ضمن خطة محدّدة بهدف استغلال الإمكانات المتاحة، البشرية أولاً والبيئية ثانياً، بقصد تحقيق مستويات أعلى للمعيشة بمستوياتها كافة، كالتعليم والصحة... إلخ، وصولاً إلى الرفاهية الاجتماعية والاقتصادية.

لقد شاع استخدام كلمة تنمية «Development» عقب الحرب العالمية الثانية، وقُسِّم العالم إلى دول متخلفة «Under Developed Countries»، وأخرى في سبيلها إلى التطور «Developing»، وثالثة متقدّمة «Developed»، ومعيار التقسيم هو ما وصلت إليه هذه الدول من تطور من حيث البنيان الاقتصادي ومستوى الحياة المعيشية.

ومن المتعذّر الفصل بين كل من التسمية الاجتماعية والتنمية الاقتصادية، ولذلك ظهر اصطلاح التنمية الشاملة. فالاستثمار في الجوانب الاقتصادية، كشقِّ الطرق وإنشاء شبكات الكهرباء، لا بد من أن يتكامل بالاستثمار في الجوانب الاجتماعية، كمحو الأمية، وهذا ما يفتقده الإنسان العربي، ذلك أن رؤوس الأموال العربية اتجهت نحو الاستثمار في الجوانب الاقتصادية، وأغفلت إلى حد ما بناء الإنسان العربي، لذا نجد بعض خريجي الجامعات، وأحياناً أساتذة جامعيين، ما زالوا حتى اليوم مقتنعين بصاحب الخطوة وبمفعول السحر والشعوذة في إحداث أثر في حياتهم، متجاوزين العلاقة الرابطة بين الأسباب والنتائج، وقافزين على أبسط قواعد المنطق المتمثلة في «مقدّمات صحيحة تؤدّي إلى نتائج صحيحة».

وعليه فإننا نجد أنفسنا مع النملة التي تُمجِّد قيمة العمل من خلال ادّخارها طعاماً في الصيف لأيام الشتاء، وليس مع صاحب الحظوة أو الولي الذي لم تستفد منه البشرية بشيء.

إن الأنساق الثقافية المتعدّدة التي تزدهر في بعض عالمنا العربي ينبغي مواجهتها بالتخطيط العلمي حتى تنهار وتظهر أنساق أخرى جديدة تكون لائقة بالقرن الواحد والعشرين.

فالتحضّر بمعناه الحقيقي لا يكتفي بكيفية إمساك الشوكة والسكين عند تناول الطعام، أو في طريقة المشي، فهذه شكليات لها أهميتها، إلا أن جوهر التحضّر يكمن في الأنماط الحضرية، حياةً ونظاماً وسلوكاً منبثقاً من ذهنية قادرة على التكيف مع مستجدات الحياة ومتغيراتها، وقادرة على استيعاب ما يدور في العالم.

فالحدث المعيّن الذي يقع في المجتمع في وقت محدد، يخلق ديناميكية تتفاعل مع غيرها من العوامل لإحداث التغيّر الاجتماعي نحو الأعلى، إلى السمو والرقي، وباستطاعة الإنسان تفعيل بعض العوامل وتحييد بعضٍ آخر. فالعامل البيئي، ويشمل جميع مكونات البيئة الطبيعية التي يعيش فيها الإنسان كالمناخ والتربة والتضاريس، أمكن تغييره في بعض الدول العربية لإحداث التطوير المطلوب. إن تشجير مدينة أبو ظبي مثلاً، ورصف الطرق وبناء المدارس... إلخ، أدّت إلى حدوث

تغيّرات ديموغرافية، انعكست بشكل إيجابي في سلوك أبناء البلاد وحياتهم.

وتلعب العوامل الاقتصادية والتكنولوجية[18] والفكرية والأيديولوجية والسكانية والتعليم، دوراً كبيراً في التنمية، فالتطوّر التكنولوجي يعدُّ ركيزة أساسية لأية عملية تنموية، ويؤدّي في الوقت نفسه إلى استحداث أنماط جديدة في العمل.

وتجابه الدول النامية، ومن بينها بعض الدول العربية، تحدّيّات متعدّدة عند مواءمة التكنولوجيا المستوردة مع البيئة المحلية، مما يوجب التعامل مع أساليب ونُظم فنية وتكنولوجية نشأت في بلاد أخرى مختلفة. لذا، فإن إساءة استخدام التكنولوجيا عندنا، مرجعها عدم تنمية الإنسان العربي بالقدر اللازم لاستخدام تلك التكنولوجيا، والأمثلة على ذلك كثيرة، كأن يمتلك بعض الأشخاص عدداً من الهواتف المتنقلة يفوق عدد أبنائه.

ولتنمية قدرات الإنسان العربي على استخدام التكنولوجيا ينبغي تحقيق الآتي:

1 - تحديد الاحتياجات التكنولوجية على ضوء متطلّبات خطة التنمية القومية.

2 - تحديد الطاقة الاستيعابية للتكنولوجيا المتطوّرة الحالية والمحتملة.

3 - توفير شروط نجاح استخدام التكنولوجيا، بإدخال الحاسوب في المدارس الابتدائية مثلاً.

إن ارتباط الإنسان العربي بمجموعة المحرّمات والمحظورات والقوالب الفكرية الجامدة والنظم الاجتماعية، بكل إشارات المرور الحمراء فيها، تجعلنا نطرح بكل جدّية إشكالية حاجتنا إلى تنمية مخيلتنا وممارسة حقّنا الطبيعي في التخيل. فالتحرر الذهني من النظام الاجتماعي «Social Organization» سيحدث أثره في تنمية الثقافة، سواء أكان ذلك في الفن، أم في العلم، أم في الصناعة، كما أنه قد يؤدّي إلى استحداث أشكال وقواعد جديدة للنظام الاجتماعي السائد. والإنسان لا يتقبل الجديد بسرعة، فعندما ظهرت السيارات قاومها رجال المال في حي «وول ستريت»، وامتنعوا عن شراء أسهم شركاتها، لأنهم لم يستطيعوا تصور وجود شيء يمكنه أن يقهر الحصان ويتفوّق عليه في السرعة. وكذلك الأمر في الميادين الاجتماعية، فقد تطلّب الأمر عشرات السنين لكي يوافق أصحاب المؤسسات الصناعية على تحديد ساعات العمل.

ولقد انطلقت تلك التغييرات الصناعية والاجتماعية المشار إليها، من خيال إنسان تحرّر من قواعد الواقع ونُظُمه، وتصوّر نظاماً آخر ورؤى أخرى لواقع جديد، بثها عبر اللغة، وانتقلت إلى العالم فأحدثت التغيير.

كان الخيال الإنساني في أوج تألقه إبان العصر الإغريقي، فترك لنا تراثاً عظيماً ومنبعاً لا ينضب للشعراء والكتاب والفنانين، فمسرحيات جان راسين، تستمد حوادثها جميعها من الأساطير الإغريقية، بدءاً من مأساة «طيبة» وصولاً إلى «أتالي» مروراً بـ«فيدرا».

وكثير من الرسامين استمدّوا أفكار رسوماتهم من الميثولوجيا الإغريقية، فجسّد فرنشسكو غويا

التهام «كرونوس» لأبنائه، وأبدع بارثولو موس سبرانجر في تصوير «مينرفا»، كما أضاء رمبرانت خلال لوحة «خطف برو سيربينا»، وكذلك رافائيل في تجسيده ل«أبولو روماسياس»، ودومينيكيتو خلال رسمه لوحة «يانا وأكتابون».

لقد كانت خيالات الإغريق إلهاماً متدفقاً للموسيقيين أيضاً، فألّف ريتشارد شتراوس أوبرا «هيلينا» المصرية، التي تتناول الآثار المترتّبة على حرب طروادة وعفو منيلاس عن هيلينا، وتناول أوفنباخ مأساة «أورفيوس» في الجحيم من خلال أوبرا، وأبدع فرانز ليست في سيمفونية «بروميثيوس»، وكذلك كارل أورف في أوبرا «أوديب ملكاً».

وارتبط الأدب الدرامي، الذي استوحى موضوعاته من الصراع الأبدي بين آمال البشر والزمن المميت، بالأسطورة التي لم تعد تعني بعض المعاني الغامضة الدالة على الأشياء الغريبة صعبة التصور، بل تلك التي تدلّ على نسق فكري. فعندما جلس «ميداس» إلى المائدة المليئة بما تشتهيه النفس من طعام وشراب - عقب تحقيق أمنيته بتحول كل ما يلمسه إلى ذهب - أحس بثقل المأساة، عندما تحوّل ما يلمسه من الطعام والماء إلى ذهب بين يديه، تمنى حرمانه من قدراته الجديدة، وكره الذهب أكثر مما كره الموت، وتوسّل إلى الآلهة قائلاً: «لقد أخطأت... لقد أخطأت ولا مرَدَّ لما ارتكبت»، وتضرّع إليه أن يخلصه من محنته، فرده الإله إلى طبيعته الأولى. هذه الحكاية الأسطورة، ذات دلالة واضحة على نمط التفكير الإنساني السائد حينذاك. ومثلها حكاية سيزيف الذي حكمت عليه الآلهة بأن يحمل حجراً على ظهره ليصل به إلى قمة الجبل، فيسقط الحجر منه ويعود لحمله مرة أخرى، إلى ما لا نهاية، وما تمثّله هذه الحكاية من دلالة على عبثية الحياة وعدميتها في بعض نواحيها على الأقل.

وبالنظر إلى هذه الأفكار تتّضح ماهية الإنسان وطابع العقل البشري في مراحله المختلفة، الذي تطوّر إلى الاستقلال الفكري على أيدي المفكّرين النظريين في القرن السابع عشر، حيث تحرّر العقل الغربي من سلطة الفكر الأسطوري واللاهوتي وأصبح قادراً على النهوض والوقوف على قدميه. لقد آن الأوان للعقل العربي للانطلاق كالسهم إلى عنان السماء بإطلاق الذهن من عقاله ودفعه إلى التخيّل، والمزيد من التخيّل المنظم، ذلك أن تطور وتقدّم الإنسان يقف في اللحظة التي لا يستطيع فيها أن يتخيّل، وتتباطأ معدلات رُقِيّه وتنميته بالقيود التي تحدّ من قدرته على التخيّل.

وحقّنا في التخيل - نقطة الانطلاق إلى الإبداع - يلزمنا ألّا نفرّط به بالرضوخ إلى القوالب الفكرية الجامدة التي نتلقّنها منذ الصغر، فالحدس الأسطوري هو تخيّل يحمل في أحشائه واقعاً قادماً توجد في ثناياه عوامل فنائه لصالح تخيّل آخر لواقع متجدّد، متجاوزاً الواقع المليء بالألم الجميل، فالواقع المُعاش غالباً مؤلم، تلطّفه رياح التخيل ورذاذه، فلنتخيل ولنتدرّب عليه من أجل إلغاء جزئي للواقع اليومي!

إنها دعوة إلى ممارسة الحق الطبيعي في التخيّل، تتخيّل ما شئت، قبل أن تنام يومياً لمدة عشر دقائق فقط، وابذل جهداً خيالياً كي تتخيّل أنك تعيش في عصر آخر كنت تتمنى لو أنك ولدت فيه، تخيّل أنك لم تفقد في الحياة من تحب وأنه ما زال حياً، ودع لأفكارك تداعياتها، تخيّل أنك طائر

محلّق في السماء تشاهد الأرض من علوّ بما عليها من البشر، تخيّل أنك على حافة هاوية على وشك السقوط الدائم فيها، تخيّل أنك ذقت الموت غرقاً وولدت من جديد، تخيّل أنك مت مرتين.

تخيّل ما شئت، فالتنمية المخيّليّة لا تقل أهمية عن التنمية الاجتماعية والاقتصادية، فالأولى تسعى إلى سعادة البشر والثانية إلى رفاهيتهم.

وتخيّل كم كان العالم سيخسر لو لم يتخيّل الإغريقي «بينيلوبي» تنسج على نول غطاء لوالد زوجها، أوديسيوس الغائب منذ 20 عاماً، وتنسج خيوط القدر، وتخرب في الليل ما حاكته طوال النهار لكي تؤخّر الأجل إلى ما لا نهاية...

وحذار أن تتعجّل الرحيل فرحلتنا واحدة، وتخيل كم هي جميلة... الحرية.

في تاريخ الحب وأصله

يبدو الحديث عن تاريخ الحب مرادفاً لسبر أغوار الوهم، فكلما اقتربت من الفكرة لملامستها تبتعد عنك إلى دهاليز مظلمة لا تتبيّن الطرق فيها، وكما تعوّدنا، فإننا نجد أنفسنا أمام التفسير الأسطوري لأصل الأشياء التي لا تفصح عن تاريخها، وتجتهد في تفسير وجودها.

وتذهب الميثولوجيا الإغريقية إلى أنه في ليلة الاحتفال بعيد ميلاد آلهة الجمال «فينوس» أقيمت وليمة عامرة تليق بهذه المناسبة العظيمة، وكان «بوروس» وهو روح الربح، بين الضيوف، والتحقت بالوليمة في نهاية الاحتفال «بنيا»، وهي روح العوز، وكانت تستجدي الحضور، وعندما لمحت «بوروس» نائماً، اضطجعت إلى جانبه ولاطفته، فحملت منه وولدت «الحب»، وهكذا المحبوب دائماً جميل، لمجيئه في عيد ميلاد «فينوس»، بارع في ترتيب الحيل والمكائد لبلوغ مأربه، لأنه ابن الربح «بوروس»، كما أنه دائماً يعيش محتاجاً ولا يشبع لأنه ابن العوز «بنيا»، فطبيعة الحب وخصائصه وما يجمعه من متناقضات تعود إلى نشأته.

فالحب ليس إلا وهماً، يعتقد بوجوده اثنان، فيقتنعان به كرباط مقدّس يؤلف ما بين روحَيهما ويترجم إلى الاتصال الجسدي، وإن ظل كل منهما مقتنعاً بذلك الوهم المشترك، فستمضي حياتهما تظللها السعادة، وإن شك أحدهما في وجوده، فإنه ينزل به من السماء إلى الأرض، من الخيال إلى الواقع، الذي يسحق الجميع تحت عجلاته. ومن هنا تختلف المعايير وتتباين، ففي حالة الحب الصادق يكون المعيار والمحك هو مدى الاقتناع بوجود هذا الوهم، وفي حالة الشّك في وجود هذا الوهم، أي عند تقييم العلاقة بطريقة عقلية بحتة من خلال إجهاد الذهن في فهم معطيات هذه العلاقة ومدى إمكانية نجاحها، فإننا بذلك نكون قد استخدمنا، بوعي أو من دونه، معيار «المصلحة»، وستكون استمرارية هذه العلاقة، في هذه الحالة، نتيجة أن أحد الطرفين سيحقّق للآخر ما يتمنّاه... وللحب جانبان، يتشكّل الأول من خلال أربعة تداخلات، وهي: الصداقة ثم التوافق الفكري، فالعواطف وما يتبعها من انسجام نفساني، والجنس. ويلخّص الجانب الثاني قدرة كل من الحبيبين على الاقتناع بوجود الحب، بمعنى قدرة كل من الحبيبين على صنع «بجماليون» للآخر، والعاطفة بين الجنسين هي الأكثر تشابكاً وتعقيداً، فهي تتكوّن من عناصر حسية وجمالية وتُبنى على الإعجاب المتبادل والود وحب التملك، وتنشأ من خلالها حرية لا تتوافر إلا بإزالة الحواجز ما بين الحبيبين.

كم من المحبّين في هذا العالم أحبّوا بمنتهى الصدق مرّات عدّة، وكانت أحاسيسهم ومشاعرهم تجاه محبّيهم في المرّة الأخيرة كما في المرّة الأولى، وليس في ذلك تناقض، فبالغوص في أعماق النفس البشرية، نجد أن ذلك ليس إلا قدرة كل واحد على الاقتناع بوجود الوهم.

ما العمل إذاً؟ هذا هو السؤال الذي يتبادر إلى أذهاننا جميعاً: ما العمل؟ أنُحب ونجسّد الوهم في حقيقة... أم لا نحب، ونعيش في الحقيقة فقط؟

لا نستطيع إلا أن نُحبَّ، فقتل الحب في الإنسان هو تفريغ لمضمونه الإنساني. إن أسباب الحب

ودوافعه كثيرة ومتناقضة، غامضة ومبهمة، ولكننا في الوقت نفسه نكاد نتحسَّسها، نعم، فإن العلاقات الاجتماعية تتّسم بعدم الاستمرار، وتتّصف بالتذبذب وعدم الاستقرار، وهذا لتأثّرها إلى حد كبير بعلاقات الإنتاج والعمل في المجتمع، إن لم تكن انعكاساً لهذه العلاقات. إننا جميعاً قلقون، تهتز الأرض من تحت أقدامنا، هذا هو الواقع، وهذه هي الحقيقة، فالمجتمع موجود ولكن المستقبل مجهول.

فمن منا لم يشكّ في تراجع حبّه لمن يحبّه، عليه أن يتذكّر حكاية هرقل وطريقه إلى الموت عبر الحب. فبينما كان هرقل في طريق عودته إلى الوطن، مصطحباً زوجته الجديدة «ديانيرا» ولدى بلوغه نهر إيفينوس (Evenus)، وجده هائجاً سريع الجريان مليئاً بالدوامات ويصعب عبوره، فوقف يبحث عن مخرج، لم يكن هرقل خائفاً من العبور، بل كان يخشى على زوجته، وبينما هو في حيرة من أمره صادفه القنطور نيسوس، وعرض عليه أن يحمل عنه زوجته إلى الضفة الثانية. فرأى في العرض إغراءً، نظراً لمعرفة نيسوس بمواقع العبور الضحلة، ولدرايته بممرات النهر الغاضب. فعهد البطل لنيسوس بزوجته التي انتابها الوجل من هيئة القنطور واندفاع النهر، وبينما كان هرقل يرمي بقوسه وهراوته إلى الضفة الأخرى، كان القنطور ككتلة الصخر الصامدة المتحرّكة يحمل ديانيرا مخترقاً دوامات النهر الصاخبة، وما إن همّ هرقل بالتقاط القوس والهراوة من الضفة الأخرى، حتى سمع صراخ زوجته يتردّد في الهواء، فالقى ببصره تجاهها، فوجد القنطور يسابق الريح ليهرب بها، وليجعلها محظية له، عندها تناول قوسه ورمى القنطور بسهم مشبع بسُمّ الهيدرا الزعاف، فأصابه ليتدفق الدم على قميصه، الذي أهداه لديانيرا موهماً إياها بأنه تعويذة تحرّك الحب الدفين إذا خبا.

وبعد مرور الأعوام الطوال، وانشغال أسماع الدنيا بأعمال هرقل، خلعت ديانيرا عن نفسها عباءة الحقيقة، وأصغت إلى ثرثرة ربة الشائعات التي روت لها قصّة حب تربط هرقل مع أبوليه، ابنة ملك أويخاليا، وتراءى لها هرقل في لحظة انسيابه تحت العشق واستسلامه للنوم يطير مع معشوقته بلا أجنحة في عالم سماؤه أرجوانية اللون، كأنه يسبح في الهواء الذي حمله بعيداً إلى عش مليء بصغار البجع تصدر عنها أصوات تنادي أمها في موسيقى لم تسمع أجمل منها، ولوهلة تصوّرت نفسها تحلم، لكنها أفاقت منذ قليل فقط، فما معنى هذا؟ أليس اللاوجود أكبر وأغنى مما نعتقده موجوداً؟ وما معنى الصحة والنوم؟

أفاقت من غفوتها، فوجدت نفسها ما بين المعنى واللامعنى، معلّقة في خيوط العنكبوت تحاول التخلّص منها، وهي، وفي كل فجر جديد، تفصل الليل عن النهار، وكلما أصرّت على الخلاص، جذبتها محاولاتها إلى المزيد من الغوص في تلك الشبكة. إنها الحياة أم الحلم أم اليقين؟ أم المستقبل يستبق ذاته؟ أم إنه ماضٍ لم تَعِشه؟ إنها نقاط المطر تحاول إيقاظها خارج رحم الزمان، فالحاضر يفلت منها إلى الماضي من دون أن تتذكّره، والبجعة الأم المولودة من رحم الريح شطرتها إلى نصفين في اللحظة نفسها، والضربة ذاتها.

واختلطت الحقيقة بالخيال، فصدّقت الشائعات، وحارت في ما تفعل، هل تقتل عشيقة زوجها، أم تتركه وتعود إلى كاليدون؟ أم تلزم الصمت؟ وتذكّرت وهي في حيرتها، قميص القنطور نيسوس،

تعويذة الحب إذا خبا، فأعطته إلى ليخاس ليقدّمه هدية إلى زوجها، ولم تكن تعلم ما يخبئه لها القدر، ولم يكن ليخاس طيّب القلب، يدري بمفعول القميص المشبع بدم نيسوس وسم هيدرا، تلك الأفعى التي هزمها هرقل وكانت كلما قطع لها رأساً نبت مكانه رأسان، وكانت جراحها تمدُّها بمزيد من القوة والعنف.

وبينما كان هرقل يحرق البخور ويقدّم القرابين تقرّباً للآلهة، كان السم يتسلّل إلى جسده، ونار الآلام تستعر في قلبه، فتحطّم المعبد بصراخه الذي ملأ الكون، فانطلق مهرولاً محاولاً خلع القميص أو تمزيقه، لكنه لم يتمكّن من ذلك، فلقد تداخل القميص مع جسده كتداخل خيوط الليل بخيوط النهار، ولم تستطع اليد التي خنق بها أسد نيميا الوحشي أن تفعل شيئاً، وها هو الكتف الذي حمل عليه السماء يتهاوى، أشفقت الآلهة على بطل الأبطال أن يحل به ما هو مكتوب على البشر وأن يبتلعه الموت فتحرّر من شكله الإنساني الفاني وتجلّل بالهيبة والوقار، فرفعته الآلهة مخترقاً السحب والصعاب، معتلياً عربة فضّية تجرها جياد ذهبية، فأصبح نجمة تتلألأ في السماء، تستطيع - إذا أردت أن تراها - أن تنظر في ليلة صافية على يسار القمر.

ضد الجوع

تقول الأسطورة اليونانية، إن الشجرة المقدسة كانت في الغابة البعيدة تحرسها «ديميتر»[19]، يأكل من ثمرها الناس، وتستظل بفيئها الحيوانات. وكانت للعالم مظلة، فجاء الجاحد «أبرزتون»، الذي خالف التعاليم بعدم قطع الأشجار، وبقسوة ضربها بالمعول، فتألمت وأخذت تنزف الحنين والنار، وإذ بجذعها يسقط محدثاً دويّاً هائلاً ما زال يُسمع صداه. فغضبت «ديميتر» وحكمت على «أبرزتون» بالجوع مسلطة عليه «فامن»، التي نزلت من أعالي جبال القوقاز، وجالت بين البشر حتى حطّت في جسد «أبرزتون»، فتملّكه النهم وصار لا يشبع، فنفد ما لديه من مال وباع كل ممتلكاته لشراء الطعام فلم يشبع، فباع ابنته إلى أحد التجار ليسد جوعه، وقد تضرّعت ابنته إلى «نبتون»[20] أن يخلّصها من رتق العبودية فحوّلها إلى صياد، فلم يتعرّف عليها التاجر الذي اشتراها، ويئس وعاد أدراجه إلى بلاده، فعادت ابنة «أبرزتون» إلى هيئتها الأولى بعد أن تعهّدت بأن تسقي الأشجار وترعاها مدى الحياة. ومات «أبرزتون» من شدة الجوع، ولم تغادره «فامن» إلى أن كان القبر مثواه. وما زالت «فامن» منذ تلك اللحظة تنتقل من مكان إلى آخر، ولذلك يشعر بالجوع كل من يقطع شجرة، فالثمار للبشر والشجر للهو، ولم يستطع أحد - منذ ذلك التاريخ - أن يُعيد «فامن» إلى أعالي جبال القوقاز، وأخذت تنتقل من بلد إلى آخر ناشرة الجوع والبؤس في أركان المعمورة.

وتعلم «فامن» أن تقدّم البشرية وتنمية المجتمع مرتبطان بالقضاء عليها، وليس ذلك من قبيل الواجب الأخلاقي، وإنما كضرورة اقتصادية واجتماعية. ولإتمام ذلك ينبغي النهوض ببرنامج وطني في كل دولة على حدة - وفقاً لظروفها - للقضاء على الجوع. وبالنسبة لعالمنا العربي، يجدر بنا الدفع ببرامج محو الأمية، وإتاحة التعليم للجميع، وزيادة فرص العمل وتنمية مهارات الأفراد، بما يؤدّي إلى خريجين أكثر قدرة على تلبية احتياجات المجتمع.

وإلى الآن، لا تبدو العولمة قادرة على توزيع أكثر عدلاً للدخل، وقراءتنا للواقع الحالي تجعلنا نرى القرية العالمية يسكنها نوعان من البشر، عالم في رفاه وبحبوحة من العيش، وآخر تسيطر عليه «فامن». فحسب دراسة البنك الدولي حول معضلة الفقر، فإنه يوصف بالفقر كل من عاش بأقل من 3.20 دولار في اليوم، ويوصف بالفقر المدقع كل من يعيش على أقل من 1.90 دولار للفرد في اليوم. وإلى اليوم فإنه لا يزال نصف سكان العالم (حوالي 3.4 مليار نسمة) يعانون من الفقر، بينهم 736 مليون شخص يعانون من الفقر المدقع،وفقا لإحصاءات 2015، فيما يظل 26.2 في المئة (أكثر من 1.9 مليار شخص) من سكان العالم يعيشون على أقل من 3.20 دولار للفرد في اليوم، و 46 في المئة من سكان العالم يعيشون على أقل من 5.50 دولار للفرد في اليوم! ووفقاً لتقرير لجنة (الإسكوا) الصادر عن الأمم المتحدة 2م فقد بلغ العدد التقديري للفقراء في المنطقة العربية 116 مليون نسمة، يشكلون نسبة 40 بالمئة من سكان عشرة بلدان عربية شملتها الدراسة.

إن فكرة التقدّم الإنساني للوصول بالبشرية إلى آفاق أرحب تقتضي التسامح إزاء الآخرين، كما تقتضي

الحرية واحترام التنوّع الثقافي. فثقافة الرجل الذي يحيا في غابات أفريقيا مقتنعاً بالسحر والشعوذة، جديرة بالاحترام كثقافة الأوروبي الذي يتعامل في شبكة المعلومات الدولية، والحرية المقصودة هي حرية التعبير وحرّية الانتقال، والحق في مياه نقية وفي بيئة نظيفة، وكلّها تجلّيات للحرّية. ويجب الاعتراف لكل فرد بحريته في التعبير عن رأيه، على أن يعمل ما تجتمع عليه أغلبية الناس وتعطيه قوة القانون مع الحقّ في إلغاء هذا القانون عندما يوجد ما هو أفضل منه، لأن من المستحيل أن يفكّر الجميع بطريقة واحدة. والحرية شرط أساسي لتقدّم العلوم والفنون وكافة أشكال الإبداع الأخرى، إذ ليس من المتصوَّر أن يبدع خائف أو أن يخترع من هو مكبَّل بالقيود. والجانب الآخر من الحرية، هو التقيّد بالنظم والقوانين المعمول بها في كل دولة. وإذا فهمنا حرّية الفعل، بأن يفعل كل فرد ما يحلو له، فإننا بذلك ننزلق إلى فوضى قد تقوّض أسس المجتمع المدني، وعلى كل فرد في المجتمع أن يثبت ولاءه للدولة بالانصياع لقوانينها ونُظُمها، فضوابط الحرّية تشابه إشارات المرور في الطرقات، لا ينبغي تجاوزها، وهي فضيلة ينبغي الحفاظ عليها.

فالفقير ليس حرّاً، والذين يحتاجون إلى كمية أساسية من المياه النقية وقد فرضت عليهم بيئة غير صحيّة، وقدرة تكاد تكون معدومة على الانتقال أو التواصل من خلال أجهزة الاتصال الحديثة، هم غير أحرار. إن الرقّ في العصر الحديث موجود بشكل مختلف عن شكله التاريخي، فقد اتخذ الآن أشكالاً جديدة من البؤس والقهر.

كذلك فإن عدم التوزيع العادل للثروة، والتمييز العنصري بسبب اللون أو الجنس ينتجان فقراء جدد، والجوع وسط الرفاه يخلق مشاكل سياسية واقتصادية واضطرابات قد تعصف بالمجتمع. ولا شك في أن دخولنا الألفية الثالثة مثقلين بهذا العدد الهائل من الجياع يعتبر وصمة عار في جبين الكرامة الإنسانية.

وللفقر أسباب كثيرة، كالاحتلال ونهب ثروات الشعوب ومواردها الطبيعية، والحروب الأهلية والإخفاق في عدالة توزيع الثروة والإمعان في أذية البيئة أو تلويثها.

وباتت الشركات متعددة الجنسية، تتحكّم في إدارة اقتصاد العالم، وربط المساعدات للدول الفقيرة بفتح أسواقها أمام التجارة العالمية، وحرية رؤوس الأموال في التنقل عبر الحدود من دون قيود، وتشجيع الاستثمارات الأجنبية، مما يؤدّي في نهاية المطاف إلى إعادة إنتاج شكل جديد من الهيمنة الاستعمارية على مقدرات دول العالم الثالث، وزيادة الفجوة ما بين الأغنياء والفقراء.

وتكمن مواجهة الفقر في القدرة على التحكّم بالموارد الطبيعية والبشرية وعدم إهدار الثروة في الحروب والنزاعات. فلقد قدرت تكلفة حرب الخليج الأولى (1980) ب. 180 مليار دولار أميركي، وحرب الخليج الثانية (1991) قرابة 232 مليار دولار، والحرب الأهلية في لبنان 25 مليار دولار، ولو استثمرت تلك المليارات في مشاريع إنتاجية أو استثمارية لاختلف الوضع الحالي لعالمنا العربي.

وللمفاهيم الاجتماعية أيضاً دور كبير في إنتاج الفقر، فالفقراء ينجبون الكثير من الأطفال لاعتقادهم بأن الأبناء هم ركيزتهم في الشيخوخة ومصدر أمان لهم لدى عجزهم. لذا فإن توسيع

مظلّة الضمانات الاجتماعية سيعمل على ضبط الزيادة السكانية على المدى البعيد وتقليل عدد الفقراء.

ويعتمد تغيير المفاهيم الاجتماعية وتطويرها بشكل أساسي على العملية التعليمية، فالتحوّلات الملموسة التي تمت عقب اختراع الكومبيوتر، وتنامي اعتماد التنمية الاقتصادية على التكنولوجيا، يجعل مطلوب منّا توجيه الأولوية القصوى للتركيز على العملية التعليمية، والعمل على رفع مستوى التحصيل التعليمي وإعادة النظر الدائمة في برامج التعليم وتحسين أوضاع المعلمين، ورفع مستواهم العلمي والاجتماعي. فما لم نأخذ في اعتبارنا مستوى الخريجين من العمالة الماهرة المؤهلة تكنولوجياً، فإن فرص عملهم ستكون محدودة، ذلك أن التقانة دخلت في كل قطاعات الحياة، وستشهد السنوات العشر المقبلة سقوطاً لم يسبق له مثيل لأنصاف المتعلّمين والعمال غير المهرة، وفي الوقت ذاته ستشهد صعوداً لم يسبق له مثيل في خلق ثروات طائلة من تكنولوجيا المعلومات، وسيظهر الكثير من أمثال بيل غيتس، الذي تبرّع في الآونة الأخيرة بمبلغ مليار دولار أميركي لتوزيعها في شكل منح دراسية للطلاب. وعلى رغم تأييدنا لهذا الاتجاه في أعمال الخير، إلا أننا نرى أنه ينبغي إيجاد آلية قانونية واقتصادية لتوزيع أكثر عدلاً للثروة، مما يجنّبنا احتمال اضطرابات سياسية أو اجتماعية تعود بالبشرية خطوات إلى الوراء. إن خطوة إلى الخلف من أجل خطوتين إلى الأمام هي أفضل من خطوة إلى الأمام تعقبها خطوتان إلى الخلف.

والإعلام، بوسائله المرئية والمسموعة والمقروءة، يلعب دوراً في صياغة عقول المتلقّين وتوجّهاتهم، ويحمل في طياته تطويراً للمفاهيم الاجتماعية أو ترسيخاً لها أو العودة بها إلى الوراء. فالفكر يدرِك بالعينين ما لا يدركه بالأذنين، ويدرك بالأذنين ما لا يدركه بالعينين، وبذلك يهيمن الإعلام على العقول مرتكزاً على المعتقد والثقة في وسائله. والعملة النقدية تستمدّ قيمتها من المصداقية التي نضعها فيها، ويدرك الإعلام جيداً الأهمية الحقيقية لما هو وهمي، ذلك أن اللغة لا تعني تماماً ما تقوله وهي مفتوحة على تأويلات عدة.

وفي هذا الإطار يجدر التنويه بنموذج يحتذى به هو إمارة أبو ظبي، حيث إن الإدارة السياسية فيها أوجدت طرقاً جديدة لضمان رفاه مواطنيها، وكرّست آليات لتوزيع الدخل بشكل يعم فيه الرفاه الاقتصادي على الجميع، وجاءت سيادة النظام الأخلاقي الإسلامي والتزام الأغنياء إخراج الزكاة والصدقة لتضييق الهوة بين الأغنياء والفقراء، أضف إلى ذلك ترسّخ السلوك الاجتماعي المنضبط، ووجود نظام سياسي لا يتوانى في ضخ كافة موارده الاقتصادية في التنمية البشريّة والبنية التحتيّة للدولة. إنه نموذج جدير بالاقتداء وهو الأقدر على الارتقاء.

بيان إلى القرن الحادي والعشرين

كان لثورة الفلك التي قادها كوبرنيكوس في القرن السادس عشر، ونادى من خلالها بأن الأرض ليست مركز الكون، بل هي كوكب صغير في فضاء لا محدود، تدور حول نفسها وحول الشمس، وضمن الحركة المزدوجة للكواكب... أثر عظيم في تطوّر البشرية.

وبفضل تلك النظرية استطاع الإنسان في منتصف القرن العشرين مغادرة كوكب الأرض ورؤيته من الخارج، فتبيّن له أن تلك الكرة السابحة في الفضاء بلا شراع، والتي تعجّ بالحركة والمليئة بالأشواك والكراهية، لا تظهر منها سوى مسطّحات مائية وغيوم وضباب ويابسة، ولا يكاد يبدو أي أثر لنشاط الجنس البشري عليها.

وعندما أرسل البشر «هابل» لاستكشاف الفضاء في العام 1990 م، كشف لنا هذا التليسكوب تفاصيل مذهلة عن الكون، فأوغلت عيونه في حديقته ورأى أبعد مجرة معروفة بدت كما كانت عندما كان عمر الكون قرابة عُشر عمره الحالي، أي عندما كان عمره من 1 إلى 2 بليون سنة تقريباً. فاستطاع الإنسان أن يرى ماضي الكون، وفشل في رؤية ماضيه، وكم تمنّى لو تُوَجّه عدسات هابل إلى الكرة الأرضية ذاتها، لمحاولة اكتشاف مكنونات البشر، ولكن العدسات عجزت عن الوصول إلى أعماق الإنسان، فالحب والكراهية بحاجة إلى معايير فلسفية حاكمة وليس إلى عدسات موجّهة. والإنسان، لم يملك إلى الآن القدرة على المواءمة ما بين الجهود البشرية وقوانين الطبيعة، فالأراضي الزراعية تتراجع لصالح التصحّر، ومصادر المياه تنضب، والأشجار في الغابات تُقطع، فما يفعله البشر بأمنا الأرض فاق ما فعلته البراكين والزلازل وقوى الطبيعة المنفلتة من دمار وتدمير.

إن التدهور البيئي المتنامي وازدياد أعداد الفقراء واتّساع الهوة ما بين الدول الغنية وتلك الفقيرة، وكذلك ما بين الفقراء والأغنياء في البلد الواحد، في الوقت نفسه الذي تقدّم لنا التكنولوجيا حلولاً متعدّدة وآفاقاً جديدة لاستغلال أفضل للأراضي الزراعية وللمياه وغيرها من الموارد البيئية، وقد أصبح باستطاعتنا نقل المعلومات والبضائع والأفكار بسرعة مذهلة، مما جعل كوكبنا «الأرض» صغيراً كما يبدو لنا عندما نراه من الفضاء، تطوّر من جهة وتدهور من جهة أخرى. فأعداد الناس الذين لا يقرأون ولا يكتبون تتزايد، وكذلك الذين لا يملكون مساكن صالحة للمأوى والذين لا يملكون المأكل المناسب، فالجائعون في ازدياد، والتكنولوجيا تخلق باستمرار فرصاً أكثر وإنتاجاً أوفر، ولكن الرؤية النظرية التي تميّز ما بين الحق والباطل، والعدل والظلم، هي ما نفتقده. ولم يمتلك البشر بعد نُظماً اقتصادية أو سياسية للتوزيع العادل لإنتاج الكرة الأرضية على سكانها، بينما طوى القرن العشرون صفحاته على أحلام تحطّمت على صخرة الحقيقة.

فالحربان العالميتان، الأولى (1914 - 1918) والثانية (1939 - 1945) وما خلّفتاه من ملايين القتلى والجرحى والمعوّقين، والحروب الإقليمية المستمرة في كل مكان، وملايين الألغام الأرضية المتربّصة بالضحايا، وآلاف الطائرات التي تخترق أسراب النوارس لتنشر القتل والدمار وتضيء السماء بنيران الرشاشات والمدافع، تلك الأموال التي شهدها القرن العشرون

لأهداف ضبابية، تقودنا إلى المستقبل من دون نظرية شاملة ومن دون منهج. فالاشتراكية كنظام اقتصادي أثبتت فشلها والرأسمالية لم تقدّم البديل الناجح.

إن ما ينقصنا في الواقع هو الحقيقة التي نبحث عنها وتخدعنا وتراوغنا، فنعتقد بأننا أمسكنا بها أو كدنا، فإذا بها تفاجئنا وتُخرج لنا لسانها ومن عدة اتجاهات، مرة في تسابق نووي ما بين الهند وباكستان، فيما يرزح شعباهما تحت سياط الفقر والجهل والجوع، ومرة في ممارسات إسرائيلية مفعمة بالقسوة على نساء وأطفال لا ذنب لهم سوى أنهم متمسكون ببقايا أرض كانت لهم وستبقى، ومرة أخرى تراوغنا الحقيقة بشكل مفزع في هذا التيه العظيم، حيث ثمانمائة ألف من البشر، يقتلعون من أرضهم فقط لأنهم ألبانيون. فما معنى التطهير العرقي في القرن العشرين؟ ما يحدث يؤكّد أن تاريخ الإنسان لم يبدأ بعد، فما زلنا في مرحلة ما قبل الإنسانية.

إن التراكم المعرفي منذ الحضارات الفرعونية والإغريقية وحضارة ما بين النهرين، وصولاً إلى عصر النهضة الذي أفرز كوبرنيكوس ونيوتن، وما قدّمه المفكّرون العظام في تاريخ البشرية، من سقراط الباحث عن الحقيقة، وصولاً إلى فولتير، فيلسوف الحرّية، كل هؤلاء قدّموا الكثير للقرن العشرين. قدموا لنا مفاهيم الحرية والإخاء والحق والتسامح والعدل واحترام حقوق الإنسان، فماذا قدمنا نحن للأجيال القادمة من مفاهيم إنسانية؟ قدّمنا «نهاية التاريخ» لفوكوياما و«صراع الحضارات» لهنتنغتون! لقد قدّم العبيد آلاف القتلى في سبيل الحرية، وقدم الفرنسيون في ثورتهم الآلاف على المقصلة في سبيل الإخاء والمساواة، فما قدّمته البشرية في عصور النهضة من تضحيات أتى بمفاهيم وقيَم إنسانية ندين لهم بها، أما آلاف القتلى في فلسطين وكوسوفو وأميركا اللاتينية وأفريقيا في القرن العشرين، فهم قرابين تقدّم لذوي المصالح الاقتصادية ولمزيد من تراكم رأس المال، من دون أن يكون لتلك التضحيات من مردود يؤدي إلى مزيد من حقوق الإنسان. إن دوافع المصالح الاقتصادية ضيّقة الأفق ستظل عالقة كالدنس في القرن العشرين، وما لم ينفض البشر ثياب المصالح الشخصية الرثة ستظل أشباح القتلى تحوم في الليالي الموحشة. إن أكثر الوصمات عيباً أن يقدَّم الأبرياء على مذبح المصلحة الاقتصادية لتكريس المزيد من التبعية والهيمنة السياسية لدولٍ لم يتعدَّ تاريخها الخمسمائة عام... وفي الأرض متسع للجميع.

فالقوانين والنظريات الفلكية التي أصبحت من بديهيات العلم الحديث كانت في عصر النهضة تُهَماً بالكفر تزجّ بأصحابها في غياهب السجون وترسلهم إلى الموت حرقاً. وقد ظلت نظرية كوبرنيكوس في الفلك مجرّد معادلات رياضية لا يفهمها رجال الدين حتى جاء جوردانو برونو وشرح مغزاها واستخلص منها بأن الكون لا نهائي، وبأن وراء عالمنا الفلكي عوالم بلا حصر. وزعزع بذلك الاعتقاد الديني بأن الأرض هي مركز الكون، وبأن الإنسان هو القصد من الخليقة. وقال بأن هنالك عوالم مأهولة غير عالمنا.

رجال الفكر والحكماء الذين نادوا بالتجديد الأخلاقي أو العلمي، لم يلقَ أغلبهم التكريم في أثناء حياتهم، بل دفعوا حياتهم أو حريتهم ثمناً لدعواتهم، وكان ذلك هو الثمن الذي دفعته البشرية في سبيل حرّية الفكر والبحث العلمي، ولولا انتصار النظريات العلمية وصمود رجال الفكر في مواجهة

الكنيسة لظلت أوروبا تنظر إلى الكتاب المقدّس وكأنه الكتاب الجامع المانع للعلوم كافة، لا يفرِّط في شيء من علوم الأرض والسماء.

وارتقاء رجال العلم والفلسفة مراكز مرموقة في الدولة ظاهرة حديثة، فالعلماء، مثل باقي المجدّدين الأخلاقيين، كان عليهم أن يخوضوا معارك عنيفة ليُعترف بهم، فقد نُفي بعضهم، وأُحرق آخرون، وبمرور الوقت تبيّن لدى الدولة أن المحدّثين سواء أكانوا علماء أم اجتماعيين يمكن أن يوظّفوا كأداة للسلطة. وبفضل العلم، لدينا الآن النور الكهربائي والسينما، وأصبحت الحياة أسهل. وبفضل العلم، نستطيع نشر الأنباء والمعلومات، سواء أكانت حقيقية أم مضللة من خلال وسائل الإعلام، وكل حياتنا، بما فيها من تطوّر، تمَّ بفضل العلم. وهذا التطور الشاسع، تدعمه الدول حالياً، ولكنّه في بداياته كان متعارضاً مع الدولة. ولم تكن المعارضة للعلوم في الماضي مستغرَبة، فلقد جاء المفكّرون بآراء تناقض العرف السائد، فاتهموا بالكفر، فعندما أعلن أناكساجوراس، في العصر الإغريقي، أن الشمس حجر أحمر ساخن، وأن القمر جزء من الأرض، اتُّهم بالكفر ونُفي من أثينا، لأن الشمس والقمر في مفهوم ذلك الزمان كانتا آلهتين جديرتين بالتوقير، وكانت السطوة على قوى الطبيعة التي منحها العلم، هي التي أدّت إلى قليل من التسامح مع العلماء، مع أن قدراتهم في البداية كانت منسوبة إلى السحر.

نحن بحاجة إلى مفاهيم وقيم جديدة توازي الدور الحاكم الذي تلعبه التكنولوجيا في تغيير عمليات الإنتاج، والتي تقوم على البحث والتجديد، والمحكومة بالرغبة في زيادة رأس المال وتقليل التكاليف.

والحقّ أقول: من يقدّم الخبز والزعتر، لا يمكنه تقديم الرصاص. ومن يُحسن القراءة، فليتهَجَّ السلام... الحرية!

حول الفلسفة

1 - المدرسة الأيونية

2 - المدرسة الفيثاغورية

3 – هيراقليطس

4 - المدرسة الإيلية

5 – أمبادوقليدوس

6 - المدرسة الذرّية

7 – انكساغوراس

8 – السوفسطائية

9 – سقراط

10 – أفلاطون

موجز تاريخ الفلسفة اليونانية

كانت أشباح الآلهة وخيالات الأبطال والقديسين تزاحم البشر وتتقاطع مع أعمالهم الدنيوية، وتتدخّل في مسار الطبيعة، وذلك في عقول الإغريق الذين خلقوا الآلهة.

ولم تكن الآلهة التي ابتدعها خيال الإنسان في العصور القديمة على مستوى واحد، فأهمها الآلهة الكبرى، وهي تمثّل قوة الطبيعة التي تحيط بعالمنا، مثل الأرض والماء والهواء والنار، وآلهة أخرى أقل شأناً من الأولى، مثل آلهة الحب وآلهة الحصاد.

ومن بين الأساطير القديمة، تعتبر أساطير الشعوب الإغريقية أروعها وأكثرها طرافة.

كان الإغريق الأوائل يعتقدون بأن العالم وُجد نتيجة صراع الآلهة، ففي البدء كان الفضاء «جوس Chaos»، ثم انطلقت «جايا Gaea» أي الأرض منبثقة من الفضاء. ومن الأرض ولد «هيميرا Hemera» أي النهار، ثم الليل، ثم «أورانوس Uranus» أي السماء، ثم «بونتوس Pontus» أي البحر.

بعد ذلك جاء العمالقة الـ«سيكلوب Cyclopes»، وهم مخلوقات بشعة ذات عين واحدة في منتصف الجبهة، ثم جاء الـ «تيتانوس Titanus»، وقد جسّد العمالقة وتيتانوس، كل ما هو ضخم وقوي على الأرض، مثل الجبال الشامخة والزلازل وثورات البراكين.

وقد استطاع أصغر التيتانوس، الإله «كرونوس»، أي الزمن، إخضاع العالم كلّه تحت سلطانه. وكان الزمن، ولا يزال، شديد القسوة مجرّداً من الرحمة، لم يتورّع عن افتراس أولاده. وبهذه الصورة البشعة، كان اليونانيون يرمزون إلى الزمن الذي يحطّم كل شيء في الوجود من دون شفقة، أو رحمة.

أما «أورانوس» إله السماء، فكان يخشى أولاده من الذكور، ويقذف بهم في الهاوية عقب ولادتهم، غير أن زوجه الأرض «جايا»، استطاعت إنقاذ ابنهما من الزمن «كرونوس» من الهلاك، فاستطاع بدوره إطلاق سراح إخوته. وعلى ذلك تنازل الابن البكر تيتانوس عن حقوقه إلى شقيقه كرونوس، شريطة ألّا يقوم بتربية أولاده الذكور، فقبل كرونوس هذا الشرط، ولهذا السبب، افترس أبناءه من زوجه «تيا Thea»، ولكن ابنه الخامس «زيوس Zeus»، إله الرعد، أفلت من هذا المصير المفجع، وعندما أصبح رجلاً، خلع والده وحارب التيتان وانتصر عليهم، وبذلك أصبح زعيم الآلهة، ويطلق عليه بالرومانية «جوبيتر».

يرمز جوهر الأسطورة الإغريقية إلى انتصار زيوس، الذي كان بداية عهد من الاستقرار والنظام والسلام على الأرض. وفي الواقع فإنه بمرور القرون والأجيال، قلّت الكوارث التي كانت تتعرّض لها الأرض منذ بدء الخليقة، مما انعكس على الفكر الإنساني بأنَّ حُكْم الآلهة قد استتب. والإله زيوس يجسّد النظام الرائع الذي يسود الكون، ولهذا السبب اعتبر الإله الذي كان ينبغي على الآلهة الأخرى، التي تمثّل مظاهر الطبيعة المختلفة جميعها، أن تدين له بالطاعة والولاء.

كان الإغريق يعتقدون أن الآلهة تؤلّف أسرة واحدة، تعيش فوق قمة جبل «أوليمب». وكان لكبيرهم، إله الرعد زيوس، عدة زوجات، كانت أهمهن «هيرا»، وله منها «مارس»، إله الحرب، و«أفروديت»، آلهة الجمال والحب، و«هرمز» رسول زيوس، و«ديونيسيوس»، إله الخمر، و«مينرفا»، آلهة الحكمة، التي كان يُعتقد بأنها انبثقت، وهي كاملة النمو، من رأس زيوس. وقد صوّر الإغريق الآلهة بأشكال مختلفة، فمنها من كان وسيم الطلعة ومنها قبيح المنظر، ومنها من كان عجوزاً أو شاباً، على وفق مهنته، فمثلاً كان مظهر الإله مارس، يوحي بالتهديد والحرب، وكان «فلكان»، إله الحدادة، يوحي بالقبح والقوة.

هكذا انبعثت الفلسفة اليونانية، في ظل هذه الآراء، وكانت معولاً أخذ يهدم بفاعلية كل هذه المعتقدات. واتفق مؤرّخو الفلسفة من الغربيين على أن اليونانيين مدينون للشرق القديم بكثير من النظم والمعلومات الرياضية والأفكار الفلكية... لكنهم يرون أن الفلسفة اليونانية خلق عبقري أصيل جاء على غير مثال، وليس امتداداً أو تطوراً لحكمة الشرق القديم، إذ كانت التماساً للمعرفة النزيهة التي ترمي إلى كشف الحقيقة بباعث من اللذة العقلية وحدها، من دون أن تدفع إلى ذلك أغراض عملية أو غايات دينية. وإذا كانت مناهج البحث عند قدماء الشرقيين، قد اختلط فيها الاستدلال العقلي بالبداهة والخيال، وكانت تأملاتهم وليدة معتقداتهم الدينية، فإن الفلسفة اليونانية قامت على البرهان العقلي والتحليل المنطقي. ولم يكن غريباً بعد هذا أن يقول «برتراند راسل» إن اليونان هم الذين أنشأوا العلم الطبيعي، وابتدعوا العلم الرياضي، وابتكروا الفلسفة! ومرت الفلسفة اليونانية بثلاث مراحل، استغرقت الأولى والثانية منها العصر الهلّيني الذي انتهى بموت أرسطو والإسكندر الأكبر في أوائل القرن الرابع قبل ميلاد المسيح.

وفي المرحلة الأولى، التي كانت إبان القرنين السادس والخامس قبل الميلاد، وُضعت أصول الفلسفة النظرية على يد الأيونيين والفيثاغوريين والإيليين، ثم نشأت أصول الفلسفة العملية على يد السفسطائيين وسقراط، الذين أنزلوا الفلسفة من السماء إلى الأرض، فاتخذت الإنسان والأخلاق مجالاً لبحثها.

وفي المرحلة الثانية، إبان القرن الرابع قبل الميلاد، كانت فلسفة عملاقي الفلسفة اليونانية: أفلاطون وأرسطو، قد استوعبت شتى فروع العلم، وتناولت بالدراسة العميقة مسائل الفلسفة طولاً وعرضاً.

أما المرحلة الثالثة، التي شغلت الفترة ما بين القرنين الثالث والأول ق.م، فكانت في العصر الهلينستي، وفيه افتقد اليونان استقلالهم في موقعة «خيرونيا» العام 338 ق.م. وأذهل الإسكندر العالم بانتصاراته في الشرق. ومال الفكر الفلسفي في هذا العصر إلى الغروب، ونضبت أصالته وجفّت ينابيع الابتكار، وتدهورت الحياة العقلية التي بلغت ذروتها على يد أرسطو، وأصبح الفلاسفة يستخفّون بالنظر العلمي المجرد، ويسخّرون الفكر لخدمة الأخلاق، وكان مصداق هذا في أكبر مدارس العصر الفلسفية، وفي مقدمتها «الرواقية» و«الأبيقورية».

وسنستعرض في ما يلي المرحلتين الأولى وفكر أفلاطون ممثلاً عن المرحلة الثانية.

1 - المرحلة الأولى

المدرسة الطبيعية الأيونية؛ الأصل الواحد للأشياء..

وسميت بذلك لأن الممثلين الرئيسيين الثلاثة لهذه المدرسة، وهم: طاليس وأنكسمندريس وأنكسمانس، من أيونيا، أي ساحل آسيا الصغرى.

1 - طاليس: وهو من الحكماء السبعة، ولد عام 624 ق.م. مات قرابة عام 550 ق.م. وقد اهتم كثيراً بدراسة الطبيعيات، وتنبأ بكسوف الشمس في العام 610 ق.م، علماً أن هذه التواريخ تقريبية، وينطبق الشيء نفسه على تواريخ الفلاسفة الأول.

وتعتبر فلسفة طاليس «طبيعية»، لأنها تبحث عن الأصل الطبيعي للموجودات. وكان يُعتقد بأن «الماء» هو هذا الأصل، وأن أي شيء يمكن أن يتحوّل إلى ماء، فيما يمكن للماء أن يتحوّل أيضاً إلى شيء آخر. وكان طاليس يتصوّر أن الأرض تطفو فوق الماء كما يطفو الخشب على بحيرة هادئة، وأن الكون مليء بالآلهة. كما كان يعتقد بأن النفس تملأ العالم، وأن كل شيء متحرّك له نفس، فالإنسان يتحرك... إذاً له نفس، ومثله الحديد الذي يتحرّك بفعل المغناطيس... ولم يكن الفرق في ذلك الوقت واضحاً بين الروح والمادة.

2 - أنكسمندريس: بعد وفاة طاليس، في منتصف القرن السادس قبل الميلاد، انتقلت المدرسة الأيونية إلى مدينة «مليطة»، إلى أنكسمندريس الذي ربما وُلد قرابة العام 611 ق.م، في تلك المدينة. وهو الذي توصّل إلى قياس الوقت بواسطة ظل الشمس، وكان يعتقد بأن الأرض لا ترتكز على حامل، كما ظن طاليس، بل هي معلّقة في وسط السماء على مسافة متساوية من سائر الأفلاك، وأن الأصل الأول للموجودات هو اللامحدود، الذي لا يمكن أن يكون عنصراً طبيعياً بعينه، مثل الماء أو الهواء، وهو غير قابل للفناء. واعتُبرت فلسفة أنكسمندريس في حينها ثورة على الأساطير التي تتكلّم عن نشأة العالم. لقد كان يتصور أن اللامحدود متحرّك، قد خرجت منه كرة من اللهب، ثم انفجرت إلى أجزاء كثيرة، وأصبح كل جزء منها في صورة دائرة بواسطة الحركة. وفي تفسيره لأصل العالم سبق أنكسمندريس النظريات الفلكية الحديثة التي تقول بأن أصل العالم هو الانفجار الكبير Big Bang.

ويشير بعض المفكّرين إلى أن أنكسمندريس كان صاحب نظرية في التطور، وكان يعتقد بتطور الكائنات الحيّة، وبتلاؤمها مع البيئة التي تعيش فيها. وقال إن أول ما ظهر من الكائنات الحيّة على الأرض كانت الأسماك، وآخرها الإنسان. وكان يذهب إلى أن الأرض في البدء كانت سيّالة ومع الجفاف التدريجي عن طريق التبخير، تولّدت الكائنات الحية من الحرارة والرطوبة، وكانت الكائنات

الحية الأولى بدائية، ثم تطوّرت إلى أجهزة عضوية أرقى، من خلال التكيف مع بيئتها. وكان الإنسان سمكة في الماء، ومع الجفاف وجدت مناطق من الأرض عالية جافة، فتحوّلت بعض زعانف الأسماك إلى أطراف لتلائم الحركة على الأرض، وهكذا اكتشف أنكسمندريس نظرية النشوء والارتقاء قبل داروين. ومن أقواله: «إن كل ما ينشأ يصيبه الفناء، وكل ما يولد جدير بالموت».

3 - أنكسمانس: كان من سكان مدينة ملطية. ولد نحو العام 558 ق.م، ومات قرابة العام 524 ق.م. اتفق مع الآخرين على أن المبدأ الأول للكون مادي، وقال بأن التخلخل هو مثل الحرارة المتنامية، وإن التكثيف هو البرودة المتنامية، وإن الهواء بالتخلخل يصبح ناراً، والنار المتولّدة للأعلى على الهواء تصبح نجوماً، وبالعملية العكسية الخاصة بالتكثيف يصبح الهواء أولاً سحباً، وبالدرجات الأشد من التكثيف يصبح ماءً وصخوراً على التعاقب، وأضاف أن العالم يدور في مجرى الزمن من جديد ويستحيل إلى هواء أولي. ولقد قال أيضاً بنظرية العوالم اللامتناهية وهذه العوالم متعاقبة.

المدرسة الفيثاغورية؛ تناسخ الأرواح

فيثاغورس:

قد يبدو غريباً أن فيلسوفاً إغريقياً عاش من 2500 عام تقريباً، ما يزال يلعب دوراً في تعليمنا الحالي، بيد أن هذا حقيقي بالنسبة لفيثاغورس، الذي ولد قرابة العام 580 ق.م. في جزيرة «ساموس» ببحر إيجه، ولسوء الحظ، لم يُعثر له على أية مؤلفات. ومعظم ما نعرفه عنه نُقل إلينا عن طريق كُتّاب متأخّرين. وكما هي الحال مع العظماء، فإن الحقائق تختلط مع الأساطير في قصة حياته.

لم يكن فيثاغورس مولعاً بالأعداد والهندسة فحسب، بل والعلوم الأخرى التي كانت معروفة وقتئذٍ، وكان شغوفاً بالدين. ومن المرجح أنه توسّع في تعلم الموسيقى ودرس العلاقة بينها وبين الحساب، وهي من أهم اكتشافاته.

أسس فيثاغورس مدرسته زهاء العام 529 ق.م. في «كروتونا»، وهي ميناء إغريقي مزدهر في جنوب إيطاليا، وسرعان ما التحق بها 300 شاب. وكانت أقرب إلى أن تكون فرقة دينية من كونها مدرسة، فلقد كان أعضاؤها يتعارفون بإشارة سرية، وكانوا يشتركون في تملك جميع الأشياء، وتعاهدوا على أن يعاون بعضهم بعضاً.

وكانت موضوعات الدراسة هي درجات الحكمة الأربع: الحساب، والهندسة، والموسيقى، والفلك، وواجبات الإنسان نحو أخيه والآخرين. وكان يُفترض في هؤلاء التلاميذ أن يمارسوا فضائل المروءة والتقوى والطاعة والإخلاص، أي جميع الفضائل في المثالية الإغريقية للرجل الطيب والشجاع.

ومن المعتقدات الرئيسة لدى فيثاغورس «تناسخ الأرواح Transmigration of souls»، أي إن روح الإنسان تنتقل عند موته إلى جسم آخر، بشري أو حيواني، وكان يعتقد بأن الروح لا تموت، وأن كل شيء يتحوّل. وقد تكمن روح الإنسان في جسد حيوان ثم تدعه إلى جسد إنسان، ومثلها الأنفاس تنتقل بين البشر والحيوانات من دون أن تفقد ماهيتها، وتبقى الروح هي نفسها دائماً مهما انتقلت في أجساد مختلفة.

وكان فيثاغورس يعتقد بأنه لا يمكن للروح أن تتحرّر من الجسد وتفوز بالخلود في السماوات، إلا بعد حياة نقية. والحياة النقية كانت تعني حياة التقشُّف. ولكن الكثير من القواعد التي وضعها فيثاغورس كانت تشبه الطقوس البدائية، فعلى سبيل المثال: كان من المحظور على التلاميذ أن يأكلوا الفول، أو يكسروا الخبز، أو يقلّبوا النار بقضيب من الحديد، أو يلتقطوا ما وقع على الأرض! وكان يعتقد بأن الموسيقى بالغة الأهمية في السمو بالروح. وعلى ذلك درس التلاميذ نظرية الموسيقى. وكان من تعاليمه أن السماء كلها تتكوّن من «مقياس» أو «عدد موسيقي». وكان فيثاغورس من أوائل الذين أيقنوا أن الأرض والكون مستديران، أما مريدوه فكانوا يعتبرونه نصف إله.

وانغمس الفيثاغوريون في السياسة، وكانوا كلما اكتسبوا سلطاناً، أظهروا الاحتقار للجماعات الجاهلة وغير الفلسفية، التي لا تستطيع أن تحيا حياة التأمل الرفيعة. مما أدى إلى سقوطهم، بعد أن ثار الناس عليهم، ونُفي فيثاغورس، حيث توفي وهو في سن الثمانين. وبعد مئتي عام من وفاته، أقام مجلس الشعب تمثالاً له في روما، تكريماً له بوصفه «أحكم وأشجع الإغريق». ويرجع إلى فيثاغورس الفضل في تعريف كلمة الفلسفة، وهو أول من قال إنها «محبة الحكمة» «فيلو: محبة، سوفيا: الحكمة».

وكان فيثاغورس يعتقد بأن أصل العالم هو «العدد» الذي هو أحكم ما في الوجود، وأن أجمل ما في الكون هو «الانسجام». والجديد في الفلسفة الفيثاغورية، القول بوجود نِسَبْ بين الأشياء تشبه النسب الرياضية والموسيقية.

وقد تصوّر فيثاغورس الأعداد على أنها امتداد، والعدد ليس في الحقيقة الرقم الحسابي ولكنه يرمز إلى شكل وحجم هندسيين. والأعداد هي علل وجود الأشياء من حيث إنها تحدّد مساحتها. ولم يكن العدد - بالنسبة إلى المدرسة الفيثاغورية - فكرة مجرّدة أو مثالاً مجرَدًا، ولكنه عدد مجسَّم في المكان له امتداد وشكل وحجم.

ويرجع إلى فيثاغورس الفضل في اكتشاف النظرية الهندسية الشهيرة باسمه، التي تقول إن وتر المثلث قائم الزاوية يساوي مربع الضلعين الآخرين، ويُحكى أنه قد عد هذه النظرية وحياً من الآلهة. ويعتقد فيثاغورس بأن هذا العالم لا فراغ فيه، ويملأه الهواء اللامحدود، وهو الذي يفصل بين الأشياء بعضها عن بعض. كما يعتقد بأن باطن العالم يحتوي على نار كامنة. وهي في مركز الأفلاك، ويسميها فيثاغورس بصورة رمزية «أم الآلهة». وهو يعتقد بأن عرش زيوس هو بجانب هذه النار، وأنه نقطة الاتحاد والانسجام بين جميع الموجودات.

وبحسب فيثاغورس فإن الزمن ينساب كالنهر الذي لا نستطيع إيقافه، فالماء المتدفق كما الساعات المتتالية، فلا نستطيع إرجاع الموجة إلى الوراء، كما لا نستطيع إرجاع الزمن للوراء، ويصبح ما حدث منذ قليل بعيداً ثم أبعد.

وكانت المدرسة الفيثاغورية تعتقد بأن الحركة هي طبيعة الموجودات، لا السكون، وأن جميع الموجودات تصدر عنها أصوات هي عبارة عن «النغم الموسيقي» في هذا العالم، والأنغام التي تصدر عن القيثارة صورة مصغّرة للأنغام التي تملأ العالم، ويوضح فيثاغورس أن سبب عدم استطاعتنا سماع تلك الموسيقى الكونية هو أن السمع لا يدرك النغم إلا عندما يسبقه أو يتبعه السكون. وهذا النغم الموجود في العالم هو نغم مستمر، وما من إنسان على هذه الأرض قد أدرك السكون السابق لهذا النغم، ولذلك فنحن لا ندرك بالسمع هذه الموسيقى الكونية.

وكان فيثاغورس يعتقد بأن المخ مصدر التفكير، مؤكّداً أن كل خلل يطرأ على المخ لا بد وأن يؤثر على التفكير. كما كان يعتقد أن سبب الإبصار هو نار موجودة في العين تضيء الأشياء خارجها، وأن التفكير يبدأ من الإحساس وينتهي بالذاكرة.

وفسّر فيثاغورس الموت على أنه انفصال في الذاكرة يحدث عندما تعجز النفس

عن تذكّر الماضي لكي تتّصل بالمستقبل. وكان أول من نادى بعدم أكل لحوم الحيوانات، واعتبر أن أكل اللحم هو تدنيس للجسد البشري، ونادى بأكل الغلال والفاكهة التي تُثقل غصون الأشجار. وقال بأن الحيوانات الكاسرة هي التي تأكل اللحوم، مثل الأسود والنمور، فيما تكتفي الحيوانات الأليفة بأكل النباتات، فطالما توجد إمكانية لأن نحيا من دون أن نسد رمقنا بالتهام كائن حي آخر، فلماذا إذاً لعق الدماء؟

هيراقليطس

صراع الأضداد ولد هيراقليطس في مدينة أفنوس قرابة العام 353 ق.م. أيام حكم الملك داريوس الأول، ويبدو أنه كان معاصراً لبرمنيدس الإيلي، وهو يُعتبر من أكبر الفلاسفة اليونان. ويسود الاعتقاد بأنه عاش حتى سن الستين، وهذا يجعل وفاته العام 475 ق.م، وكان أكثرهم عبقرية. ولقد عبّر عن أفكاره الفلسفية في بحث مكتوب نثراً، كان معروفاً أيام سقراط، ولم يتبق لنا منه سوى شذرات. وقال سقراط عنه: إن ما فهمه منه كان رائعاً، وإن ما لم يفهمه منه أيضاً رائع بالمثل.

وكان هيراقليطس معادياً للمدرسة الإيلية، فالإيليون ذهبوا إلى أن الوجود وحده موجود، وأن الصيرورة غير موجودة، وكل تغيُّر وهم، أما هيراقليطس فالصيرورة عنده وحدها هي الموجودة، والثبات والوجود ليسا إلا وهماً. وتدور فلسفة هيراقليطس حول أربع مسائل رئيسة، وهي:

1 - الحرب هي أصل لجميع الأشياء.

2 - لا بد من وحدة تجمع هذه الأشياء.

3 - الوجود في تغير دائم وانسياب مستمر.

4 - نسبية الأمور.

بيّن هيراقليطس أهمية القانون للدولة، بأنه في منزلة الفهم للإنسان، وأنه إذا كانت الأسوار تقي المدينة من أعدائها فإن القانون يضمن النظام في الداخل، ومن ثم وجب على الشعب أن يناضل في سبيل حماية الأسوار وفرض احترام القانون.

وكان يَعتقد بأن الشمس تولد كل يوم، ويقول إن غروبها معناه انطفاء هذه الشمس لكي تشرق من جديد في فجر اليوم الثاني، إشارة إلى التتابع والتوالي بين الحياة والموت. والشمس التي تبدو للعين المجرّدة صغيرة الحجم، هي كبيرة، ومن أشعتها يتولّد البخار في الهواء، وهذه الأبخرة تؤثّر على الكواكب الأخرى، وعندما ترتفع درجة الرطوبة في الهواء يكون الشتاء، وإذا انخفضت يكون الصيف، والقمر يشبه الدن، وهذا الوعاء متحرّك، وهذه الحركة هي التي تفسّر لنا أشكاله المختلفة وكيف أنه يبدو أحياناً بدراً، وأخرى هلالاً وقد يختفي تماماً.

وكان هيراقليطس يعتقد بأن الأصل الأول للأشياء هو النار، وأن العالم ليس من صنع الآلهة والإنسان، ولكنه كان دائماً كما هو الآن وبالصورة نفسها. كما كان يعتقد بأن النفس تعود بعد الموت إلى النار الأولى، حيث تجتمع النفوس كلها في هذا الأصل الواحد. واعتبر أن هناك تبادلاً واتصالاً بين جميع الأشياء لأن أصلها واحد وهو النار. وتعبِّر هذه النار المشتعلة والمتحرّكة عن نظرية ديناميكية للوجود، فحياة النار هي عبارة عن حركة دائمة، وبواسطة هذه الحركة

تخلق جميع الأشياء عبر عمليات التكثيف والتخلخل للهواء مع النار، وتتجه هذه النار إلى أعلى وقد تحدث الأبخرة التي تصعد وتصبح سحباً، ثم تهبط إلى أسفل وتتساقط الأمطار، فتتكوّن البحار والأنهار، ثم يموت جزء من هذا الماء فتتكوّن الأرض. ويعتقد هيراقليطس بأن النار تتّصف بخاصّيتين أساسيتين، الأولى هي الرغبة، والثانية هي التشبّع. فالرغبة معناها أن النار تفتقر إلى شيء آخر غيرها، وإلى وجود العالم الذي ينقصها. أما الشبع فيعني أن النار الكلية تحوّل الأشياء وتصهرها في ذاتها، وكأنها في هذه الحالة تكتفي بذاتها كأصل للأشياء.

ولقد تكلّم هذا الفيلسوف عن الأضداد، ومعناها أن الأشياء تنتقل من حالة إلى أخرى مضادة، وتتغير كيفياتها فتكون الصيرورة، وهذه الصيرورة لا تحدث إلا طبقاً لنظام طبيعي، فالنار تحكم الأضداد التي - من دونها - لا يكون هناك أي معنى للتغير ولا للصيرورة، فالأشياء تنتقل من حالة إلى أخرى، ويصبح الشاب شيخاً والحياة تنقلب إلى موت.

ولا يكتفي هيراقليطس بالقول إن الأشياء تنتقل من حالة إلى أخرى مضادة، بل إنها في آنٍ واحد تكون موجودة وغير موجودة، وتعاصر الوجود واللاوجود هو معنى الصيرورة. فالصيرورة هي قيام الأشياء وانقضاؤها، وانبعاثها وانحلالها، وهي تحتوي على الوجود واللاوجود، وهذا يعني تحوّل الواحد إلى الآخر، ولكن ليس بمعنى تحوّل الوجود إلى العدم، إنما يعني أن الوجود واللاوجود هما في كل شيء في الوقت نفسه.

والأشياء على حد تعبير هيراقليطس تسيل، أي دائمة التغيّر، أو في حالة سيولة دائمة. ومن أقواله المأثورة في إحدى الشذرات التي وُجدت من كتاباته: «لست أرى إلا التحوّل والتغيّر. ولا تخدعوا أنفسكم، ولا تلوموا حقيقة الأشياء، بل لوموا قِصر نظركم إن ظننتم أنكم تبصرون أرضاً ثابتة في بحر الكون. أنتم تخلعون على الأشياء أسماء وكأنما هي ستبقى إلى الأبد. ولكن النهر الذي تنزلون فيه للمرة الثانية ليس هو النهر نفسه الذي نزلتم فيه أول مرة». والزمن في اعتقاده هو العامل الأساسي للتغير، وهذه الحركة التي مصدرها النار، تكون أزلية مثل النار نفسها.

والله بالنسبة إلى هيراقليطس هو «الليل والنهار، الشتاء والصيف، الحرب والسلم، الوفرة والقلة، الجوع والشبع». وهذه المعاني غامضة، وقد قال هيراقليطس إنه لا يفصح عن الفكر ولا يُخفيه، ولكنه يشير إليه. وكان يعتقد بوجود مبدأ عقلي يحكم الوجود، وهو القانون الإلهي الذي استمد منه جميع القوانين الطبيعية التي تحكم العالم. وهذا القانون هو الذي يحقّق النظام والانسجام بين الأشياء. إنه «اللوغوس Logos»، أي العقل.

يقول هيراقليطس إن للوجود جوهراً واحداً هو النار، وإنه يتّصف بالعقل «اللوغوس». والمعرفة الصحيحة عند الفيلسوف هي معرفة الكلّي والعام، أما معرفة الجزئيات والأفراد فلا تؤدي إلى الحقيقة.

وكان من نتيجة نظرية هيراقليطس في المعرفة أن أصبح المعقول أسمى من المحسوس. وهو ينسب وهم الثبات إلى الحواس، مضيفاً أنه بالعقل نرتفع إلى معرفة قانون الصيرورة.

وفي استيعابه طريق الإنسان إلى السعادة، يرى أن الشر هو المقابل للخير، والألم هو المقابل للذّة،

وكلاهما ضروريان لتكوين التناغم في العالم.

المدرسة الإيلية Eleatic: الوحدة والثبات في الوجود

سُمّي الإيليون بهذا الاسم، نظراً لأن مقر مدرستهم بلدة إيلية في جنوب إيطاليا، وكان برمنيدس وزينون الممثلَيْن الرئيسين للمدرسة، وكلاهما من مواطني إيلية.

1 - أكسينوفان الكولوفوني: المعرفة المنقوصة:

هو الأب الروحي للمدرسة الإيلية، لأنه أول من نادى بأن الوجود واحد. ولد في مدينة أيونيا، قرابة 576 ق.م. ثم هاجر إلى صقلية، عندما انهزمت أمام الفرس في العام 545 ق.م، ثم انتقل إلى إيطاليا، وعاد إلى إيلية.

انقضت حياته الطويلة في التجوال في المدن الهيللينية كشاعر ومغنٍ، وكان ينشد الأغنيات في الموائد والاحتفالات. وجرى التعبير عن فلسفته شعراً، وكان يهاجم الأفكار الدينية الشعبية بهدف التوصّل إلى تصور أكثر نبلاً عن الآلهة.

يرى أكسينوفان أن الفيلسوف هو الذي يتعالى على المحسوس، ويبحث عن قيمة أسمى من كل القيم الحسية، ولا يخضع للمعتقدات الشعبية، ويستخدم عقله في السعي وراء معرفة الحقيقة. كما أن الفيلسوف هو من يعتقد بأن أصل الحكمة هو التفكير، وأن موقف الفكر من الأشياء هو موقف منطقي سليم.

ويعتقد بأن المعرفة الإنسانية لا يمكن أن تكون مطلقة، ويقول: من العبث أن يبحث الناس في هذه الحياة عن حقيقة مطلقة، إنما يجب أن يبحثوا عن معرفة عقلية نسبية، هي كل نصيبهم في الحياة. ويضيف أن الحقيقة لا تأتي إلا عن طريق الإلهام.

ويعتبر أكسينوفان أن الأخلاق هي التي ترفع الإنسان من المرتبة الحيوانية إلى المرتبة الإنسانية، ومن المرتبة الحسّية إلى العقلية، ويقول إن على الإنسان أن يهتم بجمال الروح أكثر من الاهتمام بجمال الأجسام.

ويذهب أكسينوفان إلى أن الناس قد جعلوا الآلهة على أشكالهم. ومعنى ذلك أن الزنوج يرون آلهتهم بأنف أفطس وبشرة سوداء، وغيرهم يراها بشعر أشقر وعينين زرقاوين.

وعلى ذلك، فإن الحيوانات، إن أرادت أن تختار آلهة، تصورتها على أشكالها، كما نفعل تماماً، ولن تكون آلهة الأبقار إلا مثلها. ويقول أكسينوفان أيضاً إنه يجب علينا أن نُقدّس الآلهة ونحترمها، ولكن هذا التقديس يجب أن يكون روحياً ومعنوياً. بمعنى أن نتقرّب إليها بعمل الخير وتحقيق العدالة بين الناس. ويقال إن أكسينوفان هو أول من قال بأن الله واحد، وأنه سبق برمنيدس في هذا

الرأي.

2 - برمنيدس الإيلي: الوجود موجود.

ولد قرابة العام 514 ق.م، وكان يرى أنه على الفيلسوف أن يتعلّم كل شيء، وأن يتعرف على كل الآراء، حتى يستطيع بعد ذلك أن يدرك الحقيقة. كما عليه أن يكون حذراً من آراء العامة والمعتقدات الشعبية.

كان في مطلع شبابه فيثاغورياً، لكنه تمرّد على تلك الفلسفة، وصاغ فلسفته الخاصة. وكان يحظى بتقدير كبير بسبب عمق تفكيره، وكان أفلاطون يشير إليه دائماً بكل احترام وتبجيل. وترد فلسفته في قصيدة تعليمية فلسفية، تنقسم إلى قسمين، يعرض في القسم الأول «طريق الحق»، وفي القسم الثاني، الآراء الزائفة، ويسميها «طريق الظن».

وهكذا تنقسم المعرفة عنده إلى نوعين: المعرفة الظنّية والحقيقة. وبينما يأتي الظن أو الرأي عن طريق الحواس، أو نقلاً عن الآخرين... فإننا نحصل على الحقيقة بواسطة العقل.

وهناك اختلاف في المنهج بين الاثنين، فمنهج العقل يختلف عن منهج الحواس. كما أن المعرفة الظنّية تكون دائماً متغيّرة، بينما الحقيقة مطلقة وثابتة. ويتّصل البحث عن الحقيقة بالبحث عن الوجود، ونحن نحكم على الوجود بأنه موجود ولا يمكن أن يكون غير ذلك.

أما في مجال المحسوسات، فالأشياء موجودة وغير موجودة، إنها تتغير وتفنى. والوجود هو وحده موضوع التفكير، وهو وحده الحقيقة. ويُعدّ برمنيدس صاحب النظرية الأنطولوجية للحقيقة، وهذا هو معنى عبارته المشهورة: «الأمر نفسه أن يكون الشيء موجوداً أو أن يكون موضوعاً للتفكير»، وتفسير ذلك أن ماهية الوجود هي ماهية معقولة يمكن إدراكها بالعقل. وبالتالي فإن الحقيقة العقلية أساسها حقيقة الوجود، ومن دون الوجود لن يكون التفكير العقلي ممكناً.

ونجد عند برمنيدس ما يسميه القانون الأنطولوجي، ونصّه الآتي:

«من الضروري أن يكون الوجود موجوداً على الإطلاق، ولا نستطيع أن نقول إن اللاوجود هو الأصل لما هو موجود». وهذا القانون يفرض وجود ضرورة عقلية تجعلنا نحكم بأن الوجود واللاوجود غير موجودين.

والحكم المنطقي عند هذا الفيلسوف يقوم على أساس مبدأ التناقض، لأنه يستحيل أن يكون الشيء موجوداً وغير موجود في الوقت نفسه. والقول بأن الوجود موجود هو حكم مثبت، والإثبات سابق على النفي الذي ينفي الوجود.

ولا يمكن أن تصدر الحقيقة عن النفي، بل عن الإثبات والتأكيد. والوجود البرمنيدي موجود منذ الأزل وإلى الأبد، بل هو موجود قبل وجود الزمان.

والوجود ليس له ماضٍ أو حاضر أو مستقبل، لأنه حضور أزلي. وطبيعة هذا الوجود واحدة ثابتة لا تتطوّر ولا تتغير، وهو وحدة متجانسة. أما الموجودات، فهي حاضرة في الوجود منذ الأزل.

وهذا الوجود - الموجود بالضرورة - لا بد وأن يكون كاملاً، وكل ما هو كامل وغير ناقص لا يخضع للفناء، وهو لا نهائي لأن اللانهائي في نظر القدماء، هو الذي يفتقر إلى موجودات أخرى خارجة عنه. ويقول برمنيدس عن الوجود: «إنه كالكرة المتناسقة الأجزاء المغلقة على نفسها، الثابتة غير المتحركة».

ويعتقد برمنيدس أن العالم الطبيعي يملؤه الأثير، وهو ألطف من الهواء والنار، وهو أصل العناصر الطبيعية الأخرى. والعالم المحسوس هو عالم الحركة والتغيّر، وهو مصدر المعرفة الظنّية والحسّية، ولا ينكر الحواس والعالم الحسي، إنما يجعل المعرفة العقلية هي وحدها التي توصلنا إلى الحقيقة.

والحواس عند برمنيدس هي مصدر كل وهم وخطأ، ولا تكمن الحقيقة إلا في العقل.

3 - زينون الإيلي Zenon: «الوجود الواحد»:

كانت كتب زينون تدور حول فكرة أساسية وهي أن «الوجود واحد لا متعدّد، وساكن غير متحرّك أو متغير».

وقد اشتهر بمنهجه الجدلي، فكل سؤال فلسفي له في نظره إجابة محتملة، والاحتمال معناه أن الفكر لا يستطيع أن يحكم على أي شيء بالإثبات أو النفي.

حجج زينون ضد التعدُّد:

1 - إذا سلّمنا بأنّ الكثرة موجودة، فيترتب على ذلك أن تكون إما متناهية في العدد أو لا متناهية. إذا كانت متناهية فمعنى ذلك أنها لا تقبل الكثرة أو القلة، وهذا يتناقض مع فكرة الكثرة. أما إذا كانت لا متناهية فمعنى ذلك أننا لا نستطيع عدّها لأنها تكثر إلى ما لا نهاية، وهذا خلق.

الفرضيتان تؤديان إلى نتيجتين خاطئتين. وإذا كانت النتيجة خاطئة، فلا يمكن أن تكون المقدمة صحيحة. وبذلك لا وجود لكثرة في الوجود.

2 - الأشياء الكثيرة، إما أن تكون لا متناهية في الصغر أو لا متناهية في الكبر. ففي الحالة الأولى، ليس لها حجم أو مقدار، ولا يمكن إضافة بعضها إلى بعض. أما في الحالة الثانية فمجموعها يجب أن يكون لا متناهياً، وهذا خلق، لأن ما له كبر يجب أن يكون له حجم وشكل. والحجم متناهٍ ومحدودٍ. ولأن النتيجتين متناقضتان، فلا بد وأن تكون المقدّمة كاذبة.

3 - كل موجود، هو موجود في مكان، والمكان يجب أن يكون موجوداً في مكان، وهكذا إلى ما لا

نهاية، ولا بد أن يكون الوجود الذي يشملها واحد.

حجج زينون في إبطال الحركة:

ساق زينون الإيلي حجتين في هذا الصدد:

أ - القسمة الثنائية، إن الجسم لا يقطع مسافة إلا إذا قطع أولاً نصفها. ولا يقطع نصفها إلا إذا قطع نصف النصف، وهكذا إلى ما لا نهاية.

ب - حجة أخيلس والسلحفاة: إن أخيلس، البطل اليوناني وأسرع العدائين في زمانه، لن يسبق السلحفاة إذا افترضنا أنها تتقدّمه بمسافة قصيرة. ذلك لأنه إذا أراد أن يجتاز هذه المسافة فيجب أن يجتاز أولاً نصفها، ثم نصف نصفها، وهكذا إلى ما لا نهاية.

يقول زينون إن السهم الطائر، في أية لحظة من طيرانه، يجب أن يكون في مكان واحد، لأنه لا يمكن أن يكون في مكانين مختلفين في الوقت نفسه.

وفكرة المكان اللامتناهي والزمان اللامتناهي نستطيع تصوّرها في ذهن زينون، وعندما يقول بأنه يجب أن يكون في الكون عدد محدّد من الأمكنة وليس أكثر، وهذا يعني ضرورة وجود قدر محدّد ومحدود من المكان، ومن ثم فإن المكان محدّد، ومن جهة أخرى من المستحيل تصور حدٍّ للمكان، ووراء الحد يجب أن يكون هناك مكان آخر، ولهذا فإن المكان لا متناهٍ، وتصَوُّرُ حدٍّ للمكان أو الزمان مسألة مستحيلة.

4 - مليسوس Melissus:

هو المثل الأخير للمدرسة الإيلية. ولد في مدينة ساموس العام 442 ق.م. ويعتقد أن التجربة الحسّية هي نقطة الابتداء في التفكير الفلسفي. وتثبت هذه التجربة أن جميع الأشياء متغيرة، ومعنى ذلك أن المعرفة التي لدينا عن التعدّد والتنوّع ليست معرفة حقيقية للوجود الواقع، لأن الوجود الحقيقي يبقى كما هو وعلى النحو الذي هو عليه. أما التغير فيؤدي إلى الموت والفناء.

أمبادوقليدوس «الحب والكراهية»

ولد هذا الفيلسوف قرابة العام 495 ق.م. وتوفّي نحو العام 435 ق.م. في أغريجنا، وهي من أغنى مدن صقلية. وقال المعاصرون له إنه كانت لديه القدرة على إحياء الموتى، وإنه كان يأتي بالمعجزات. ومما ضاعف من حب الناس له أنه ضحّى بثروته كلّها من أجلهم.

وقال أمبادوقليدوس عن نفسه، إن له قوة خارقة يؤثّر بها على الأشياء، وإنه كان يعالج المرضى ويشفيهم. وكان يعتقد أن تعدّد الأشياء لا يصدر عن شيء واحد، ولذلك فهو يقول بعناصر أربعة، هي البذور التي خرجت منها الأشياء، وهي: النار والماء والتراب والأثير. وهو يرى أن الآلهة الإغريقية كانت ترمز إلى هذه العناصر الأربعة، فهي موجودة من الأزل وإلى الأبد، ولكل عنصر صفاته التي تميّزه عن سائر العناصر الأخرى، وأحياناً يتفوّق عنصر على العناصر الأخرى فتتحدّد طبيعته.

ويعتقد بأن كل شيء في الوجود هو عبارة عن اجتماع واختلاط لهذه العناصر بنسب مختلفة، وهذه النسب هي التي تدفع إلى القول بأن هذه العناصر تختلط، كما تختلط الألوان في الرسم، وكأن الاختلاف بين الأشياء، إنما هو اختلاف بين تنوّع الأشكال لا اختلاف في الأصل.

ويقول أمبادوقليدوس: إن الحب هو مبدأ اجتماع الأشياء، وهو الانسجام والحب. أما مبدأ التنافر والاختلاف فهو من الكراهية، وبفضل الكراهية تتنافر الأشياء وتتكاثر وتتعدّد وتتجزّأ. هذا بينما الحب هو الذي يعيد إليها وحدتها، ولا شيء يمنع من وجود المبدأين معاً، ولكن أحياناً يسود الواحد على الآخر.

وكان يعتقد بأن الكون كروي الشكل يملؤه الهواء، الذي بفضله انتشرت النار التي كانت في باطن الكون إلى جوانبه. والنار في نظره قد لطّفت الهواء فأصبح أثيراً في السماء، وعندما يختلط الهواء بالنار تتولد حركة الأفلاك حول الأرض، وهذه الحركة هي علة تتابع الليل والنهار واختلاف فصول السنة.

ومن آرائه أن الأرض ساكنة لا تتحرّك، مثل الأفلاك، وأنها بيضاوية الشكل وليست كروية، وكان أمبادوقليدس يؤمن بأثر البيئة على الكائنات الحيّة في تحقيق غايتها، وبأن لكل كائن حي بيئةً معيّنةً.

والنفس في نظره آتية من جوهر إلهي، وهناك روح مقدّسة تملأ الوجود، وتخضع لها النفوس الإنسانية. كما كان يؤمن بتناسخ الأرواح.

المدرسة الذرّيّة Atomistic: «الوجود ذرّات»

1 - ليوقبوس:

هو مؤسس المدرسة الذرّيّة، من أصل مليطي، وقد تأثر بفلسفة برمنيدس، وأنشأ مدرسته في مدينة أبديرا، وكان تلميذه ديمقريطس، ولا يُعرف شيء عن حياته، كما لا يُعرف تاريخ مولده أو وفاته، ولكن يسود الاعتقاد بأنه كان معاصراً لأنكساجوراس، ولقد عاش حتى سن متقدّمة تقدر ما بين تسعين ومائة عام.

ويؤكد أرسطو أن هناك صلة وثيقة بين المدرسة الذرّيّة والمدرسة الإيلية، فلقد أراد ليوقبوس أن يفسّر وحدة الموجودات على أساس القول بالذرات، وبأن الوجود يتألّف من كثرة لا نهائية من الأجزاء التي لا تُرى بالعين المجرّدة، ونظراً لصغر حجمها فإنها تتحرّك في الفضاء أو الخلاء، وينشأ من اتحادها وانفصالها ما نسميه بالكون والفساد. ودراسة الذرة والخلاء تصبحان عنده موضوع الفلسفة. أما الظواهر المحسوسة للأشياء فهي تخضع للمعرفة الظنّية. ومن هنا أيضاً كان الشبه بينه وبين برمنيدس.

2 - ديمقريطس:

أسهم مع ليوقبوس في صياغة الفلسفة الذرّية، والمعتقد أن الأسس الجوهرية لهذه الفلسفة هي من عمل ليوقبوس، وأن ديمقريطس طبّقها وتوسّع فيها وجعلها نظرية شهيرة.

والذرّات في نظر ديمقريطس غير منقسمة وغير محسوسة لتناهيها في الدقة، وتتحرّك من تلقاء ذاتها، وفي رأيه أن الكون خلاء يسمح بحركة الذرّات، وهذه الحركة على نحوين: الأول خاص بحركة الذرات الأولى في الخلاء. والثاني خاصّ بحركة الذرّات من أجل تكوين العالم.

وبينما الحركة الأولى أفقية، فيها تصطدم الذرات بعضها ببعض، فتتكون عن هذا التصادم الحركة الثانية، وهي حركة دائرية أو على شكل دوّامة. وهذه الحركة الدائرية هي التي يحدث عنها الوجود.

ترى هذه المدرسة أن المطلق ليس واحداً، بل هو كثير بالضرورة بحكم أن الذرّات كثيرة وعندئذٍ يصبح المطلق نسبياً. ومن أهم الآراء التي قال بها أصحاب هذه المدرسة أن للذرّة نواة، وهي مركز الثقل في الذرّة.

ولقد اعتقد أصحاب المدرسة الذرّية بأن الأرض أسطوانية الشكل، وأن هذه الأسطوانة فيها فجوات تسقط فيها الأمطار، فتتجمّع البحار والأنهار.

ويقول أصحاب هذه المدرسة: إن النفس تتألف من ذرات لطيفة ومتحرّكة، والنفس هي مبدأ

الحياة والشعور، وعند الوفاة تتناثر ذرّات النفس، ومن ثم فلا مكان لحياة أخرى.

وتعتقد هذه المدرسة بأن المادة، إذا كان يمكن لها أن تنقسم، فإننا سنصل إلى وحدات لا تنقسم، وهذه الوحدات التي لا تنقسم تسمى ذرّات، وبالتالي فإن الذرّات هي المكوّنات النهائية للمادة، وهي لا متناهية في الصغر ويصعب إدراكها بالحواس.

والذرّات تترابط وتنفصل عن بعضها، وطالما أنها تترابط وتنفصل فمعنى ذلك أنه يوجد مكانٌ خالٍ حتى تستطيع أن تُتِمَّ الارتباط والانفصال فيه، ومن ثم فهناك حقيقتان مطلقتان، هما الذرّات والمكان الخالي، ويؤكّد الذرّيّون أن المكان الخالي أو اللاوجود حقيقي، شأنه شأن الوجود، أي اللاوجود موجود أيضاً.

أنكساجوراس

عقل يدير العالم ولد أنكساجوراس في كلازوميناي في آسيا الصغرى قرابة العام 500 ق.م. وهو من أسرة نبيلة ويملك ثروة طائلة، وقد أهمل أملاكه من أجل المعرفة والعلم والفلسفة، وترك موطنه واستقر في أثينا. ولقد وُجهت إليه تهمة الإلحاد والتجديف، وذلك بسبب قوله بأن الشمس هي حجر ملتهب أحمر وأن القمر مصنوع من الأرض. وكان اليونانيون يعتقدون بأن الأجرام السماوية آلهة، وحتى أفلاطون وأرسطو اعتقدا بأن النجوم كائنات إلهية. ووُجهت التهمة إلى أنكساجوراس، وحوكم وأدين، ولكنه هرب بواسطة صديقه السياسي بركليز، ومات وهو في الثانية والسبعين من عمره. ولقد كان أنكساجوراس أول من أدخل فكرة «الغائية» إلى الفلسفة، وذلك باللجوء إلى التفسير بهدف إظهار الغرض العقلي بالنسبة إلى الأشياء وبالتطلع إلى غاياتها.

ولقد افترض أنكساجوراس أن العقل والمادة موجودان منذ البداية جنباً إلى جنب، كمبدأين مطلقين أصليين. وقام مذهبه على وجود عقل يدير العالم نحو غاية محدّدة.

السوفسطائية Sophists: الإنسان معيار كل شيء

السوفسطائية «Sophism»، ومعناها الأصلي: التميُّز بالحذق والمهارة في الأمور، ولكنها أخذت بعد ذلك تدلّ على القول المموّه أو القياس الخدّاع. وكانت تطلق على تلك الحركة الفكرية التي انتشرت في بلاد اليونان عامّة، وفي مدينة أثينا خاصّة، إبّان السنوات الخمسين الأخيرة من القرن الخامس قبل ميلاد المسيح. وكان من زعمائها البارزين «بروتاجوراس» و«جورجياس».

وفي عصر السوفسطائية، انتقل مركز التفكير الفلسفي إلى الإنسان، وأصبح هو محور التساؤلات والمناقشات. ولقد كان البحث في سلوك الإنسان وطبيعته، متروكاً لاهتمام الشعراء والأدباء. ويبدو أن الفلسفة لم تجد أن البحث في الأخلاق الإنسانية هو الهدف والغاية الأصلية من وجودها، فقد كانت تهتم بدراسة الظواهر الطبيعية في الكون، حتى تغيّرت الأوضاع السياسية في البلاد، ونشبت الحروب التي استمرت من العام 490 إلى العام 450 ق.م. ثم قامت الحرب بين أثينا وإسبرطة في ذلك الوقت، واستمرت 27 عاماً، وتزعزع الحكم الديمقراطي الأثيني بعد هزيمة أثينا أمام إسبرطة.

وظهرت طبقة من الارستقراطيين الذين لا يخدمون إلا مصالحهم الشخصية. وأراد الشعب أن يستعيد حقوقه وحرّيته، ولذلك أصبح الإنسان محور عناية المفكرين والفلاسفة.

ولما أصبحت تلك الجماعة السوفسطائية تزدري البحث في الميتافيزيقا الخالصة، وتنفر من النظر في طبائع الأشياء وأصولها الأولى، ويعنيها تدبير المدينة أكثر مما يعنيها النظر العقلي الصرف، فقد أخذ السوفسطائيون يجوبون البلاد اليونانية ملتمسين التلامذة والمستمعين، وينتقلون من مدينة إلى أخرى، فيلقون على الناس، نظير أجور معلومة، دروساً في الحكمة والسياسة والفصاحة، ويعلمونهم كيف يتوصّلون إلى النجاح، وكيف ينصرون أو ينقضون أي رأي كان، من غير مراعاة لحق أو عدل.

ويرجع منهج السوفسطائيين إلى المناظرة والجدل، ومعارضة الرأي بالرأي، ومقارعة الحجة بالحجة. ولذلك كان سبيل السوفسطائي في دروسه، إما أن يُلقي خطبة صافية، وإما أن يُدلي باعتراضات على آراء غيره، أو يوجّه الأسئلة والاستجوابات إلى تلاميذه ومستمعيه. وكثيراً ما يُلقي السوفسطائيون الخطب الحافلة، التي هي في منزلة نماذج لما يستطيعون القيام بتعليمه في شتى الأغراض والموضوعات، فتراهم يخوضون تارة في مسألة من المسائل العامة، فلسفية كانت أو سياسية، وتارة يمتدحون أهل مدينة ما، أو يرثون أحد العظماء. وقد يتناولون موضوعات عادية أو تافهة فيخطبون مثلاً في مدح البراغيث وما إلى ذلك. وقد تناول السوفسطائيون كثيراً من الموضوعات التي اختلف فيها نظر الفلاسفة، كالخير والشر والحُسن والقبح.

وكان السوفسطائيون ينشدون ثقافة إنسانية جديدة، تجعل الإنسان مقياساً لجميع الأشياء، كما

قال «بروتاجوراس»، فذهبوا إلى أن ما رآه كل واحد من الناس موجوداً فهو عنده موجود، وما رآه معدوماً فهو بالقياس إليه معدوم، ولا يتعدّى هذا الحكم إلى غيره. ومعنى هذا أنهم «ينكرون حقائق الأشياء، ويزعمون أنه لا توجد حقائق متمايزة، فضلاً عن اتصافها بالوجود... بل كلها أوهام لا أصل لها».

ويقول بروتاجوراس عن الآلهة: «أما الآلهة فليس في وسعي أن أعلم أموجودون هم أم غير موجودين... تحول دون علمي بذلك موانع كثيرة... قصر العمر، وغموض الموضوع».

ولبروتاغوراس عبارة ذائعة الصيت، تناقلها عنه المفكّرون، وهي أن «الإنسان هو معيار كل شيء».

ويمكن تلخيص أهم آراء السوفسطائيين في ما يأتي:

1 - المعرفة: هي المعرفة الحسّية التي تأتينا عن طريق الإحساسات.

2 - المعرفة الحسية ذاتية وليست موضوعية.

3 - الإحساس لا الفكر هو معيار الوجود.

4 - الإنسان هو معيار كل شيء في مجال المعرفة والحقيقة.

5 - سلوك الإنسان نابع من الطبيعة الإنسانية.

6 - الإنسان يسعى بطبيعته إلى اللذة.

7 - الإنسان لا يفعل إلا ما يكون نافعاً له.

8 - المنفعة الشخصية هي التي تحدّد قيمة الأشياء.

وبالإجمال فإن السوفسطائيين لم يكونوا فلاسفة بالمعنى الدقيق للكلمة، فهم لم يتخصّصوا في مشكلات الفلسفة الكبرى، كأصل الحياة والوجود والحقيقة، وكانت نزعاتهم «عملية» وهم يُعلّمون أي موضوع مهما كان، ويُكسبون الآخرين القدرة على الجدال لمواجهة أية قضية تثار، ولذلك كانوا يركّزون طاقاتهم على تعلّم البلاغة والخطابة.

سقراط؛ الفضيلة هي المعرفة

ولد سقراط Socrates في أثينا قرابة العام 470 ق.م، ابناً لمَثَّال، وكانت أمه تعمل قابلة، ولا يُعرف عن حياته الأولى سوى أنه عندما بلغ منتصف العمر أصبح شخصاً مرموقاً في المدينة، إذ جعلت منه أفكاره الشاذّة وشخصيته الغريبة رجلاً مشهوراً. كان قبيح المنظر، جاحظ العينين، أفطس الأنف، لكنه يملك قدرات خارقة للعادة من حيث ضبط النفس، والجَلَدْ.

ولقد اشتهر سقراط في معارك اليونانيين ضد الفرس، وكانت شجاعته مضرب المثل وحديث الجميع، وأراد الشعب أن يُكرّمه فاختاره عضواً في مجلس الخمسمئة، وكان عضواً في مجلس الثلاثين. وحاول في هذه المجالس السياسية أن يدافع عن الديموقراطية وحقوق الشعب، فطالب بالعدالة الاجتماعية، وخلاصة القول إنه كان يطالب بتعديلات كثيرة في الحياة النيابية. وكان اعتراضه على الكثير من النظم السياسية التي كانت موجودة في ذلك الوقت من أهم الدوافع التي دفعت الشاعر «مليتس» إلى كتابة العريضة التي اتهم فيها سقراط بالإلحاد وإفساد الشباب.

وكانت الفلسفة قبل عصر سقراط تختص أساساً بمسائل مثل: كيف وُجد العالم؟ ومن أي شيء صُنع؟ ولقد اقتنع سقراط بأنه من المستحيل الإجابة عن هذه التساؤلات، وبأن دراسة هذه المسائل لن تُلقي أي ضوء على السبيل الحق للحياة. واتخذ سقراط لفلسفته شعار «معبد دلفي»[21]: «إعرف نفسك بنفسك»، وأراد بذلك أن يغوص في أعماق الطبيعة البشرية والنفس الإنسانية. وقد آمن سقراط بأن الآثام كلها وليدة الجهل، وأن الناس لو عرفوا فقط ما هو الحق، لما وجدوا صعوبة في اتباعه. وهذا هو معنى القول المأثور الذي يُعزى إليه: «الفضيلة هي المعرفة»، و... «ما من أحد يرتكب خطأ بمحض إرادته»، ومقولته: «من الأفضل أن نعاني الظلم من أن نمارس الظلم». وهكذا نجد أن سقراط قد أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض... من أصل الموجودات إلى الطبيعة الإنسانية. ولقد اشتُهر عنه سوء تقدير زوجه له، ومن أقواله المأثورة: «لقد أصبت بثلاث مصائب في حياتي: الجهل والفقر وزوجي، ولكنّي تغلّبت على المصيبة الأولى بالدرس، وتخلصت من الثانية بحسن التدبير، أما الثالثة فلا سبيل للنجاة منها أبداً».

المنهج السقراطي

1 - الحوار الفلسفي:

كانت الفلسفة قبل سقراط مجرّد حديث للنفس عن الحقيقة والوجود، وكان الفيلسوف يقدّم عرضاً ذاتياً لآرائه. لكن الفلسفة مع سقراط أصبحت حواراً مع الآخرين، وليست تأمُّلاً للذات مع ذاتها، وكان يحاور الناس ويناقشهم في كل مكان، في الأسواق والشوارع والبيوت

وساحات القضاء، وكان الغرض من الحوار دعوة الناس جميعاً والشباب بخاصة إلى الفكر والفلسفة.

2 - السؤال السقراطي:

تجلت عبقرية سقراط في السؤال الفلسفي الذي يوجّهه إلى الآخرين، وتميّز هذا السؤال بخصائص واضحة، منها أنه سؤال موجّه بهدف معرفة الحقيقة.

وأصبحت مهمة المفكّر أن يبدأ بوضع السؤال قبل سرد الأفكار والآراء. ويمتاز السؤال السقراطي أيضاً بأنه سؤال عن «الماهيات» أي عما هو الشيء؟ والخطوة الأولى في المحاولة السقراطية هي إرغام الرجل على أن يرى بنفسه أن أفكاره الحالية خاطئة أي ناقصة، وفي سبيل ذلك كان سقراط غالباً ما يستخدم نوعاً خاصاً من التندُّر بالذات أو التواضع، وهو المنهج الذي عُرف باسم «السخرية السقراطية»، ولقد منح ذلك سقراطاً سمعة عظيمة خاصّة بين الشباب الذين طربوا لرؤية الأفكار العتيقة لشيوخهم تتحطّم تحت وطأة سخرية سقراط.

3 - التهكّم والتوليد:

اشتهر منهج سقراط بـ«التهكّم والتوليد». فقد نشأ التهكّم من اكتشافه لجهل الآخرين وعدم معرفتهم بحقيقة الأشياء التي يتحدّثون عنها، والسخرية تعبّر عن موقف سقراط من الجهل. وكانت حكمته وفضيلته في أنه كان يعلم أنه يجهل الحقيقة، بينما كان يدّعي الآخرون معرفتهم بالحقيقة، وهم جاهلون بها. أما التوليد فإنه يعني توليد الأفكار من العقول.

محاكمة سقراط

كان العام 440 ق.م. ختام هزيمة أثينا في الحرب البيلوبونيزية ضد إسبرطة «Sparta»، التي تطوّع فيها سقراط كمحارب وطني. وترجع هزيمة أثينا إلى خيانة ألكْبيادس «Alcbiades» من ناحية، والنشاط الذي كانت تقوم به من ناحية أخرى عصبة من الإرهابيين، عرفوا باسم «الثلاثون طاغية»، وهم الذين ارتقوا إلى السلطة في أثينا والحرب توشك أن تصل إلى نهايتها. وبعض هؤلاء بالإضافة إلى ألكْبيادس، كانوا في وقت ما على صلة بسقراط، بالرغم من أنه لم يكن مسؤولاً عن جرائمهم على الإطلاق. إلا أنه في العام 339 ق.م. قدّمت الحكومة الديمقراطية، التي استعادت سلطانها، سقراطاً إلى المحاكمة بتهمة كفره بالآلهة التي تعبدها أثينا، وإفساده الشباب في المدينة. ولقد تمّت المحاكمة علناً أمام محكمة ضخمة تضم (502) من المحلّفين. ولم يجد سقراط صعوبة في الدفاع عن نفسه ضد الجزء الأول من التهمة، ولا شك أنه كان سيُبرّأ من كلا التهمتين، إذا ما كانت لديه الرغبة في التنصُّل من رسالته. وبدلاً من أن يفعل ذلك، أعلن أنه لا يستحق أي عقاب، بل يعتبر نفسه مصلحاً عاماً.

وكنتيجة لهذا الاتجاه حُكم عليه بالإعدام. وحتى ذلك الحين كان في استطاعته الهروب خارج البلاد، ولكنه رفض قائلاً، إنه لو فعل ذلك، فإنما يتنكّر لمبادئه التي قادت حياته كلها. وقال عبارته المشهورة: «علينا أن نواجه الموت مثلما نواجه الحياة».

وقد أفحم سقراط قضاته بأسلوبه الساخر الصلب، إذ قال لهم: «لو أنكم اقترحتم إخلاء سبيلي بشرط أن أتخلّى عن بحث الحقيقة لقلت لكم: إني أشكركم أيها الأثينيون، ولكني أؤثر أن أستجيب لطاعة الله الذي أعتقد بأنه هيّأني لأداء هذه الرسالة على أن أنصاع لرأيكم. وما دام بين جنبَيَّ نفَس تتردّد، وقوة أشعر بدبيبها في كياني، فلن أتوقّف عن مزاولة التفلسف ومواصلة التحدّث إلى من ألقى من الناس وتكرار القول له: ألا تشعر بالضَّعَة والخجل حين تكلف بالثروة وتتعلّق بها، ولا تحرص على الحكمة ولا تعبأ بالحق ولا تعمل على الارتقاء بنفسك...؟ إني لا أعرف ماذا يكون الموت، وربما كان أمراً طيباً، فأنا لا أخافه ولا أخشاه. ولكني واثق من أن توقف المرء عن أداء وظيفته شر لا محالة، فأنا أؤثر ما يحتمل أن يكون طيباً على ما أعرف أنه شرّ».

وأخيراً مات سقراط في السجن بأن أُشْرِبَ جرعة من نبات «الشوكران»، وهي الطريقة المتبعة في أثينا لتنفيذ أحكام الإعدام.

2 - المرحلة الثانية

أفلاطون

ولد أفلاطون في جزيرة «إجينا Egina» المواجهة لأثينا، لأسرة من عليّة الأسر الأثينية. اسمه الحقيقي «أرستوكلس» واسم أبيه «أرستون»، ولكن مدرّبه على المصارعة أطلق عليه اسم أفلاطون لقوة تركيبه الجسماني، وسعة ما بين كتفيه.

وقد وجد أفلاطون عناية فائقة بتربيته، وشُغل أول أمره بالأدب والشعر خاصة، ثم درس الفلسفة على «كراتيلوس Cratylus»، قبل أن يلتقي عام 407 ق.م.

بأستاذه الكبير سقراط. وكان ذلك تحوّلاً حاسماً في حياته وبقي في صحبة سقراط إلى أن حوكم ثم أُعدم عام 399 ق.م.

ويأتي شبابه في أكثر فترات التاريخ الأثيني خطورة. فبعد صراع مرير استمر لأكثر من ربع قرن، انتهت الحرب البيلوبونيزية بالانهيار الكامل لأثينا كقوة سياسية، واضطربت الشؤون الداخلية للبلاد وخضعت أثينا لحكم الطغاة الثلاثين.

كانت آراء سقراط وشخصيته هي الملهم لكل تفكير أفلاطون، الذي يُعتبر أول شخص في تاريخ العالم ينشئ مذهباً فلسفياً شاملاً له تأثيره في الفكر والواقع.

وبعد وفاة سقراط، بدأت المرحلة الثانية في حياة أفلاطون، وهي مرحلة الترحال، وفيها هاجر إلى ميجارا ثم إلى قورينة ومصر وإيطاليا وصقلية.

وفي صقلية انضم إلى بلاط الطاغية «ديونيسيوس» الذي غضب عليه غضباً شديداً بسبب آرائه الفلسفية والأخلاقية، حتى إنه عرضه في سوق النخاسة. لقد نجا أفلاطون بمعجزة من مصير العبودية، حيث افتداه انيساريس القوريني ومن ثم عاد إلى أثينا. واستغرقت رحلاته فترة امتدت إلى عشر سنوات.

ومع عودة أفلاطون إلى أثينا تبدأ المرحلة الثالثة والأخيرة من حياته، وفيها أنشأ مدرسة سمّاها «الأكاديمية»، جمعت التلاميذ والمريدين. وانشغل بقية حياته بالنشاط الفلسفي وإدارة الأكاديمية، وكان لا يتقاضى أجراً عن تدريسه. وتوفي أفلاطون، في هدوء، في الثانية والثمانين من عمره.

اتخذت كتابات أفلاطون شكل محاورات، كان في معظمها المحاور الرئيس سقراط، الذي وضع أفلاطون على لسانه فلسفته هو.

كما كتب أفلاطون المحاورات على مدار خمسين عاماً، وهي تنقسم إلى ثلاث مجموعات رئيسة

تتطابق مع المراحل الثلاث لحياته. فالمجموعة الأولى كُتبت في فترة متزامنة مع وفاة سقراط، وتشمل: هيبياس الأصغر + ليسيس + لاشيس + أطيفرون + الدفاع + كريتون + بروتاجوراس، والأخيرة هي أكثرها تعقيداً من الناحية الفلسفية. ومحاورات المجموعة الأولى قصيرة وكانت تحت تأثير وسطوة أستاذه سقراط. والمحتوى الفكري لهذه المجموعة بسيط، لكنها تعتبر الأفضل من الناحية الأدبية، وهي انعكاس لأفلاطون الأديب والفنان أكثر منها انعكاساً لأفلاطون الفيلسوف.

وترتبط المجموعة الثانية من المحاورات بفترة رحلات أفلاطون، وتشمل: جورجياس + ثينيتوس + السوفسطائي + السياسي + بارمنيدس.

في هذه المجموعة نجد أفلاطون وقد وقع تحت تأثير الإيليين، وكانت نظرية المثل هي المبدأ السائد في هذه المجموعة التي تعَرَّض فيها للمشكلات الفلسفية وانصبّ على الفكر، وبَعُد عن زخارف الأسلوب، وهي مليئة بالجدل الشاق والاستدلالات الدقيقة.

وتناقش محاورة جورجياس توحيد السوفسطائيين بين الفضيلة واللذة، وتحاول أن تخلُص إلى أن الخير يجب أن يكون موضوعياً ومستقلاً عن اللذة. وكذلك فإن محاورة ثيتيتوس تحاول الوصول إلى أن الحقيقة هي موضوعية وليست انطباعاً كما يذهب السوفسطائيون.

وتناقش محاورة السوفسطائي الوجود واللاوجود، وعلاقتهما بنظرية المثل، وتبحث محاورة بارمنيدس في الحقيقة المطلقة.

والمجموعة الثالثة من محاورات أفلاطون تشمل: المأدبة + فيليبوس + طيماوس + الجمهورية + فيدون + فايدروس.

وتميّزت هذه المجموعة بالنضج، ولقد وجّه أفلاطون فكره وسيطر عليه، فاحتوت هذه المجموعة على الجمال الأدبي للمجموعة الأولى والعمق الفكري للمجموعة الثانية.

ولقد افترضت محاورات المجموعة الثالثة أن نظرية المثُل قد تأسست، وهكذا فإن محاورة المأدبة، التي تتناول موضوع الحب، تحاول أن تربط بين شعور الإنسان بالجمال والمعرفة العقلية للمُثُل. وتطبّق نظرية المثل على مجال الأخلاق في محاورة فيليبوس، وعلى مجال الفيزياء في محاورة طيماوس، وعلى مجال السياسة في محاورة الجمهورية، وعلى عقيدة خلود النفس في محاورة فيدون.

ويذهب أفلاطون في محاورة الجمهورية إلى توضيح ماهية الخير، فهو يشبّه الخير بالشمس والعقل بالعين التي ترى. وفي كهف أفلاطون يدخل الناس المقيَّدون بـالأغلال فـي علاقـات مـع الظـلال، وبـالتالي فـهم لا يُدركـون الحقيقـة، ويبنـون وجـهات نظـرهم مـن خـلال معرفتـهم الحسـية. ولا يبـدأ الإنسـان - لـدى أفلاطـون - فـي معرفة الحقيقة، إلا إذا خرج من الكهف وشاهد الحقائق. وتتضارب - في هذه الأثناء - معرفته التي استقاها من المعرفة الحسية، مع المعرفة العقلية، ومع الوقت تنتصر المعرفة العقلية على الحسية. وهو يعتقد بأننا نعيش في عالم الظلال، وأن الحقيقة خارج الكهف. وهكذا نستطيع أن نقول إن صورة الكهف عند أفلاطون قـد

خلق.ت التم.يز الفلس.في ب.ين المظ.هر والحقيق.ة. وذه.ب أفلاط.ون إل.ى أن ع.الم الأفك.ار ه.و الحقيق.ة، بينم.ا الع.الم المحس.وس وه.م، ف.الإدراك الح.سّي ي.ؤدّي إل.ى انطباعات متناقضة، ذلك أن الشيء الواحد يبدو كبيراً عن قرب وصغيراً عن بعد.

كما أن أفلاطون يرى أن الفضيلة هي صحّة النفس وجمالها. أما الرذيلة فهي مرضها وقبحها.

وقد تصدّى أفلاطون بالنقد لقول السوفسطائيين بأن الأمور كلها نسبية، وأنه لا يوجد حق مطلق أو خير مطلق، وأن العدل نسبي. وقال بأن أخلاقية العمل يجب أن تتبع قيمة العمل، لا شيئاً آخر كالشهوة، ويجب أن نعمل الخير لأنه خير لا لشيء آخر.

ويتساءل أفلاطون في الجمهورية: هل تتمّ كلُّ أعمالنا بقوة واحدة سائدة فينا، أم هناك مبادئ ثلاثة يؤدّي كل منها وظيفته الخاصّة؟ ثم يجيب عن هذا السؤال بقوله: إن من البيّن أن شيئاً واحداً بحدّ ذاته لا يمكنه أن يقوم بعملين متضادَّين، أو يكون في حالين متباينتين، في وقت واحد، وفي موضوع واحد، وإذا كان الأمر كذلك فإن الأفعال والانفعالات المتعارضة الصادرة عن النفس لا بد وأن تكون راجعة إلى أن المبادئ التي تحكمها متعدّدة وليست واحدة. فالمبدأ الذي يقوم بالنهي والمنع في النفس، إنما يأتي من العقل، بينما يرجع الاندفاع والمَيل إلى الانفعالات. ويطلق أفلاطون على الجزء الذي به تعقل النفس «القوة الذهنية أو العقلية»، أما الجزء الذي من خلاله تحب وتجوع وتعطش، وتتعرّض من خلاله لكل الانفعالات، فيطلق عليه «القوة الشهَوية» وهي حليفة اللذة والانقياد. وبجانب هاتين القوتين تنطوي النفس على قوة ثالثة، هي «القوة الغضبية»، حليفة العقل الطبيعية. فالمرء عندما ينقاد لانفعالاته رغماً عن عقله، يلوم نفسه، ويثور ضد هذا الجزء من نفسه الذي تغلّب عليه، مما يدل على أن الغضب في هذا النوع من الصراع ينحاز إلى جانب العقل.

ويقرر أفلاطون أن كلّاً من قوى النفس الثلاث؛ العقلية والشهوية والغضبية، لها فضيلة خاصّة بها. ولقد قسّم أفلاطون الفضائل إلى أربع: الحكمة والشجاعة والع.فّة والع.دل، ورأى أن فض.يلة الق.وة العاقل.ة ه.ي الحكم.ة، وفض.يلة الق.وة الغض.بية ه.ي الش.جاعة، وفض.يلة الق.وة الش.هوانية ه.ي الع.فّة. ولك.ن ه.ذه الق.وى المختلفة لا بد أن تجمعها فضيلة تعلو عليها لكي يتحقّق الانسجام بين جميع الفضائل: فهي فضيلة موازنة بين مقتضيات وواجبات كل قوة من هذه القوى، ومن أجل هذا سميت باسم «العدالة».

فإذا ما تحقّق التوازن - «العدالة» - بين قوى النفس وفضائلها، حصلت النفس على السعادة. يقول أفلاطون: «ولكن الواقع أن العدالة... لا تتعلّق بأفعال الإنسان الظاهرة، وإنما بأفعاله الباطنة، وبما يختص به الإنسان وما يكون فيه قوام الإنسان. فالشخص العادل لا يسمح لأي جزء منه بفعل شيء خارج عن طبيعته، ولا يقبل أن يتعدّى أي جزء من أجزاء النفس الثلاثة على وظائف الجزأين الآخرين، وإنما هو شخص يسود ذاته نظام تام، ويسيطر على نفسه بحيث يعيش على وفاق م.ع ذات.ه ويب.ثّ الانس.جام ب.ين أجزاء نفس.ه الثلاث.ة، مثلم.ا تنس.جم الطبق.ات الث.لاث ف.ي الس.لم الموس.يقي، العلي.ا وال.دنيا والوس.طى، وم.ا ق.د يوج.د بين.ها م.ن أنغ.ام.

فبفضل قدرته على الربط بين هذه العناصر في كلٍّ متوافق منسجم، بحيث يجعل من كثرتها وحدة - بفضل هذه القدرة وحدها - يستطيع أي شخص أن يقوم بأي عمل يتولاه، سواء في ذلك جمع المال، أو إشباع حاجاته الجسمية، أو الاشتغال بالسياسة أو بالمعاملات التجارية. ففي هذه الميادين ينظر دائماً إلى السلوك العادل الشريف، على أنه ذلك الذي يسهم في تحقيق هذا التوافق في النفس، ويرى الحكمة في العلم الذي يهدينا إلى مثل هذا السلوك، أما السلوك الظالم فهو في نظره ذلك السلوك الذي يقضي على تلك الحالة المنسجمة، وأما الجهل فهو الرأي الذي يؤدّي إلى مثل هذا السلوك»[22].

وإذا كانت العدالة على هذا النحو تعني التوافق والانسجام بين قوى النفس المختلفة، بحيث تؤدّي كل منها وظيفتها الخاصة دون أن تتعدّاها وتتدخل في اختصاص غيرها، فإن الظلم، على العكس من ذلك، يتمثّل في تنافر هذه القوى وتعدّي كل منها على وظائف الأخرى: «أليس الظلم بالضرورة تنافراً بين هذه الأجزاء الثلاثة، وفوضى وتعدّياً من كل واحد على الوظائف الأخرى، وثورة من جزء معين على الكل، بحيث يزعم السيطرة على النفس، على الرغم مما تقضي به الطبيعة التي جعلت منه مطيعاً للجزء الآمر بطبيعته؟ أظن أن الفوضى بين الأجزاء هي مبعث الظلم والتهوّر والجبن والجهل، وبالاختصار كل الرذائل»[23].

تلك هي الفضائل الأربع التي قال بها أفلاطون، والتي يمكن بلوغها بالتعليم والتهذيب، وغرسها منذ الصغر بالمِران والاعتياد الحسن، والبعد عن محاكاة الوضاعة حتى لا ينتقل من هذه المحاكاة إلى التطبّع الفعلي بتلك الرذائل.

المؤثّرات الخارجية في فكر أفلاطون تأثير إسبرطة في فلسفته يقول برتراند راسل[24]: لكي نفهم أفلاطون، لا بد لنا من معرفة شيء عن إسبرطة. فقد كان لإسبرطة على الفكر اليوناني أثر مزدوج: أثر ناشئ عن الحقائق، وآخر ناشئ عن صورة خيالية، ولكل من الأثَرَيْن خطره. فالحقائق هي التي مكّنت الإسبرطيين من هزيمة أثينا في الحرب، أما الصورة الخيالية فهي التي أثّرت في أفلاطون حين كتب نظريته السياسية، بل أثّرت في عدد لا يُحصى من الكُتّاب بعد ذلك، حين وضعوا نظرياتهم السياسية.

وإذا ما حاولنا أن نُشبع رغبتنا في معرفة تفاصيل المجتمع الإسبرطي، فإننا مضطرون إلى الرجوع مرة أخرى لراسل، حيث إنه اعتمد على كثير من الكتب الأصيلة التي لا نستطيع الحصول عليها.

ويتحدّث راسل عن:

أ - نظام الملكية في إسبرطة: كانت الأرض الزراعية كلّها ملكاً للإسبرطيين الذين كان يحرَّم عليهم بحكم القانون والعرف أن يزرعوها بأنفسهم، لسببين، الأول: إن هذا العمل يحط من كرامتهم. والثاني: هو ضرورة أن يتفرّغوا للخدمة العسكرية. ولم يكن العبيد يُباعون ويُشتَرون، ولكنهم كانوا مرتبطين بالأرض طيلة حياتهم.

والأرض مقسّمة أجزاء، يملك كل إسبرطي، من الذكور البالغين، قسماً منها أو أكثر، وهذه الإقطاعيات الزراعية لم يكن من الجائز بيعها أو شراؤها، وإنما كانت بحكم القانون تنتقل من الوالد إلى أبنائه، كما يمكن لمالكها أن ينقلها بالوصية إلى من يشاء.

ب - حدود الحرية الفردية: لكي تتّضح في الأذهان صورة واضحة عن النظام الإسبرطي، يجب التعرّض إلى الحرية الفردية. وفي هذا يقول بلوتارك: لم يكن الإسبرطي في أي من مراحل عمره يتمتّع إلا بالقليل من الحرية، فقد كانت حياة الإسبرطيين، القائمة على الطاعة والنظام، تستمرّ معهم بعد أن تكتمل فيهم الرجولة التامة، لأنه لم يكن يُسمح لأي رجل أن يعيش كما يشاء، بل كانوا في مدينتهم كأنما هم يعيشون في معسكر، حيث يعلم كل إنسان أي قسط من الحقوق ينبغي أن يطلبه، وأي واجب عليه أن يؤدّيه. واختصاراً، كانوا جميعاً على هذه العقيدة، وهي أنهم لم يولدوا ليخدموا أنفسهم بل ليخدموا بلدهم... ولم يكن يُسمح للإسبرطيين بالسفر، ولا يُسمح للأجانب بالدخول إلى إسبرطة إلا لقضاء عمل ما، لأنهم كانوا يخشون أن تُفسد العادات الغريبة عنهم، ما في بلادهم من فضائل.

ج - نظام التربية في إسبرطة: يمكن تلخيص هذا النظام في عدة نقاط على النحو التالي:

1 - يقوم رؤساء القبائل بفحص المواليد، فيلقون في العراء من تكون به علة أو مرض، ولا يسمح بالبقاء إلا لمن يرونه قوياً وصحيحاً.

2 - يتجمّع الصبيان كلّهم في مدرسة واحدة حتى سن العشرين، وذلك لتوفير النظام بينهم، ولكي يخرج منهم رجال أقوياء لا يأبهون بالألم ولا ينصتون لهراء الثقافة والعلم، لأن الهدف هو جعلهم جنوداً صالحين.

3 - للمواطن الإسبرطي عمل واحد، هو الحرب.

4 - الخدمة العسكرية تبدأ من سن العشرين.

5 - يُسمح بالزواج لكل من تجاوز العشرين، بشرط أن يظلّ الرجل حتى سن الثلاثين في ما يسمى «بيت الرجال»، وأن يكون اتصاله بزوجته خفية وسراً وكأنه خارج عن القانون.

6 - إذا ما وصل المواطن إلى سن الثلاثين أصبح مواطناً كاملاً، وغدا عضواً في جماعة مشتركة في المعيشة، يأكل طعامه مع سائر الأفراد الأعضاء.

7 - على كل مواطن أن يسهم بشيء من محصول إقطاعيته، حتى لا يصبح هناك مواطن إسبرطي ذو ثراء.

8 - لا يسمح لواحد أن يمتلك ذهباً أو فضة، وكانت العملة تصنع من الحديد حتى لا يفكّر واحد في اختزانها فتصدأ.

9 - وما كان يحدث للرجال كان أيضاً يحدث للمرأة الإسبرطية، إذ كانت الفتيات يجتزن مراحل

التدريب البدني نفسها، التي كان يجتازها الفتيان، بل العجيب أن أبناء كلا الجنسين كانوا يقومون معاً بتمريناتهم الرياضية وهم عراة الأجساد تماماً.

1 - لم يكن يسمح للنساء بأن يبدين أية عاطفة لا تعود بنفع على الدولة، فلهن أن يظهرن احتقارهن للمواطن الجبان، حتى ولو كان المحتَقَر ابنهن، ولم يكن لهن أن يبدين حزناً إذا حُكم بالموت على من يلدن إذا تبين ضعفه، أو إذا قتل في الحرب.

د - مظاهر الشيوعية الإسبرطية: لا ينبغي للمتزوجة العاقر أن تعترض، إذا أمرتها الدولة أن تجرب رجلاً آخر غير زوجها، لعلها تلد للدولة أبناء، إذ إن التشريع الإسبرطي يقضي بتشجيع النسل. ويذكر عنهم أرسطو أن الوالد لثلاثة أبناء يُعفى من الخدمة العسكرية، ووالد الأربعة يعفى من كل ما تقتضيه الدولة من واجبات.

وكان من الجائز في حكم القانون أيضاً أن الرجل الشريف إذا أحب زوجة رجل آخر، التمست من زوجها أن يسمح له بمضاجعتها وإخصاب تلك التربة، ولا يجوز أن يختص الرجال بأبنائهم بل ينبغي أن يكون الأطفال مشاعاً للصالح العام.

وكانت هناك العلاقة «المثلية»، أي الاتصال الجنسي بين شخصين من جنس واحد، ذكوراً أو إناثاً. وهذا الاستجناس كان نظاماً يقرّه الناس في إسبرطة.

حول عقوبة الإعدام

1 - الإعدام في مصر الفرعونية

2 - الإعدام في قانون حمورابي

3 - الإعدام في المجتمع الجاهلي

4 - الإعدام ما بين الإبقاء والإلغاء

5 - قواعد الأمم المتحدة في القضاء الجنائي

الإعدام في مصر الفرعونية

الفلسفة الدينية في مصر الفرعونية:

يعتبر الدين من أهم الدعائم التي بُنيت عليها الدولة الفرعونية، وكان دافعاً لسلوك الإنسان حينذاك، فبنى الأهرامات كمدافن لملوكه، وأتقن التحنيط لاعتقاده بالخلود، إذ كان الإنسان في اعتقادهم مكوناً من عدة قوى لكل منها عملها، فإلى جانب الجسم يوجد «القرين» ويدعى «الكا»، وهو شبح غير منظور للإنسان، يشبه صاحبه تماماً ومُمثّلاً بشكل ذراعين مرفوعتين للتضرع والحماية، وإلى جانب «الكا» يوجد «البا» أي الروح وقد تخيّلها الفراعنة على هيئة طائر برأس إنسان.

وكانت هذه القوى، في اعتقادهم، معرَّضة للفناء إذا أُهملت، وإذا أُفنيت مات الشخص مرة أخرى، وتلاشى من الوجود نهائياً. وكانت حياة «الكا» متوقّفة على بقاء الجسم سليماً، ولذلك أُتقن التحنيط في مصر الفرعونية. إضافة إلى هذا، أقام الفراعنة الصلاة وقدّموا القرابين ليحفظوا حياة «الكا» و«البا». وكانوا يعتقدون بأن الروح تصعد إلى الآلهة في السماء، ثم تهبط بين فترة وأخرى لزيارة الجسم.

ولم تختلف مصر عن اليونان القديمة في تعدّد الآلهة، ويرجع ذلك إلى تعدّد الديانات في الأقاليم التي اتّحدت منذ عهد الملك «مينا» وكوّنت الدولة المصرية.

ولقد قامت محاولات عديدة للحدِّ من تعدد الآلهة، سواء عن طريق اعتبار أحدها «الإله الأعظم» والآخر «تابعاً» له، أو عن طريق دمج هذه الآلهة واعتبارها إلهاً واحداً في جوهره، وإن اختلفت الأسماء.

الظروف السياسية للمجتمع المصري:

في العصر الفرعوني:

بدأت الحضارة السياسية في المجتمع المصري منذ فجر التاريخ، في عهد ما قبل الأُسَر، أو منذ الفترة السابقة على العام 3200 ق.م. وإن كان بعض المؤرّخين يعتبرون هذه الحقبة بمثابة فترة الطفولة بالنسبة إلى المدينة المصرية، ويقصرون اهتمامهم على تاريخ مصر السياسي على فترة ما بعد الأُسَر، التي يقسمونها إلى ثلاثة عصور رئيسة: عصر الدولة القديمة، عصر الدولة الوسطى وعصر الدولة الحديثة.

أ - عصر الدولة القديمة 2778 - 2423 ق.م:

بدأت هذه الدولة مع ملوك الأسرة الثالثة، ومؤسّسها الملك «زوسر»، الذي نقل مقر الحكم من

طيبة إلى «ممفيس Memphis»، وسُمّي «عصر بناة الأهرام»...

وامتازت هذه الفترة، وخاصّة خلال الأسر الثالثة والرابعة وجزء من الخامسة، بقوة ملوكها وقدرتهم على توحيد البلاد وتقويتها. ولكن منذ أواخر حكم الأسرة الخامسة ضعُف نفوذ الملوك وذابت قوتهم، وبدأت وحدة البلاد تتفكّك ومظاهر الضعف تسيطر على السلطة المركزية.

2 - عصر الدولة الوسطى 2065 - 1585 ق.م:

أخذ الأمراء الحاكمون في طيبة «الأقصر» بتدعيم سلطتهم وبتوسيع رقعة أملاكهم، ثم نصّبوا أحدهم فرعوناً على البلاد، وأسس هو وخلفاؤه مملكة مستقلة في الجنوب عاصمتها «طيبة»، وقامت بذلك الأسرة الحادية عشرة، فبدأت عهداً جديداً في تاريخ مصر، هو عهد الدولة الوسطى. ولقد استطاع ملوك الأسرة الثانية عشرة إرجاع البلاد إلى وحدتها، والنهوض بها من جديد... وبعد انتهاء الأسرة الثانية عشرة، دخلت مصر مرحلة التدهور والضعف، وعادت إلى ما كانت عليه من تفكّك وانحلال، ويرجع ذلك إلى الحروب الداخلية وغزو الهكسوس لمصر.

3 - عصر الدولة الحديثة 1580 - 1085 ق.م:

بدأت هذه الدولة بحكم الملك «أحمس»، الذي طرد الهكسوس وأسس الأسرة الثامنة عشرة، وأعاد إلى البلاد وحدتها السياسية والإدارية، متخذاً من «طيبة» عاصمة لها.

وأنجبت الأسرة الثامنة عشرة الملك «تحوتمس الثالث»، الذي اشتهر بقوته الحربية وفتوحاته العسكرية، والملك «منحوتب الرابع»، الذي نشر ديانته في مصر بعد أن تسمى باسم «أخناتون» نسبة إلى الإله أتون... ولقد فقدت مصر في أواخر الأسرة التاسعة عشرة وعهد الأسرة العشرين ازدهارها، وبدأت دورة جديدة من التفكّك والانحلال، وذلك بسبب تعرّض البلاد لغزوات بعض الشعوب الهندية والمنازعات الداخلية بين أمراء البيت المالك، من أجل الاستيلاء على الحكم، وانتهت الدولة الحديثة بسقوط الأسرة العشرين.

مصر ما بعد الدولة الحديثة:

انقسمت مصر منذ ذلك الوقت إلى دولتين، دولة الجنوب وعاصمتها «طيبة»، ودولة الشمال وعاصمتها «تانيس». واستمرّت عوامل الانحلال قائمة فيها في العهود اللاحقة، وازداد نفوذ الجالية الليبية المقيمة في مصر، إلى أن استولى أحد زعمائها على الحكم قرابة 945 ق.م، مؤسساً بذلك الأسرة الثانية والعشرين.

دام الحكم حتى نهاية الأسرة الثالثة والعشرين، ثم استولى ملوك النوبة، نحو العام 720 ق.م، على مصر مؤسّسين فيها الأسرة الخامسة والعشرين. وخضعت مصر لحكم الآشوريين في الفترة ما بين

670 و662 ق.م. ولقد تصدّى «بسماتيك الأول»، بمساعدة الإغريق، للآشوريين، وتم تحرير مصر، وأسس العام 662 ق.م، الأسرة السادسة والعشرين، التي حكمت مصر حتى العام 525 ق.م، حيث وقعت البلاد في قبضة جيوش «قمبيز» ملك الفرس. واستقلّت مصر العام 404 ق.م، عن الفرس، بزعامة الملك «أمون حر»، وأسست الأسرة الثامنة والعشرون.

تولّت بعد ذلك الأسرتان الوطنيتان التاسعة والعشرون، والثلاثون، ثم عادت البلاد مرة ثانية إلى حكم الفرس العام 314 ق.م. وما لبث المصريون أن استنجدوا بالإسكندر الأكبر، فجاء إلى مصر فاتحاً إياها عام 332 ق.م. ومؤسساً لدولة جديدة هي الدولة البطليمية نسبة إلى «بطليموس» الذي استقل بالبلاد بعد موت الإسكندر، وتوارت بذلك الحضارة الفرعونية.

الجرائم المعاقب عليها بالإعدام في مصر الفرعونية:

1 - عدم إفشاء مؤامرة ضد الفرعون.

2 - عصيان أوامر الملك.

3 - قتل الحيوانات المقدّسة.

4 - العيب في المقدسات.

5 - الاغتصاب.

6 - السحر.

7 - التصريح بالكذب عن الموارد المالية.

8 - عدم إغاثة من تعرّض لهجوم الأشقياء في الطرق.

9 - الحنث باليمين.

10 - القاتل أبيه.

طرق تنفيذ الإعدام

كان الإعدام مع التعذيب عقاباً للزنى، إذا حصل من سيدات الطبقة الأولى في المجتمع، ثم أصبحت العقوبة هي جدع الأنف. والقاتل أباه، كان يُعدم بغرز قطع من القصب في جسمه، ثم يقطع الجلادون من لحمه قطعاً صغيرة بآلة خاصة، وبعد ذلك يُلقى به على كومة من القش ويحرق ببطء. أما الإعدام بالصلب فكان يُنفّذ في الخوَنة والمتمردين. ويدخل في سلطة القاضي اختيار طريقة إعدام المجرمين، بين الشنق أو الإغراق أو التقطيع أو الحرق.

وتذهب بعض الآراء إلى أن المحكوم عليه كان يُعطى بخوراً أو شراباً مخدِّراً لتخفيف آلامه. ويقول المؤرخ «ديودوروس الصقلي» إن الإعدام قد ألغي أو عُطّل في بعض فترات حكم الأسرة الخامسة والعشرين، وأُبدل بعقوبة السجن مع تقييد المجرم بالسلاسل وتشغيله في الأعمال العامة. ولكن يبدو أن الإعدام سرعان ما أُعيد من جديد وظل مقرراً حتى نهاية العصر الفرعوني.

الإعدام في قانون حمورابي

حكم حمورابي، ما بين 1728 ق.م. و1686 ق.م، بلاد ما بين النهرين بما فيها آشور، ثم ضم إليها «مملكة ماري» على الفرات الأعلى على بعد 450 كم في الشمال الغربي لبابل، ولقد تم في ذلك العهد توحيد تشريع البلاد وإحلال اللغة الآكدية، لغة رسمية للدولة محل اللغة السومرية، وجعل ديانة «مردوخ» إله البابليين، هي الديانة الرسمية للدولة.

وتُعتبر مجموعة حمورابي أهم الوثائق القانونية التي اكتشفت في تاريخ بلاد ما بين النهرين. وتتضمّن المجموعة مقدمة و282 نصاً تشريعياً وخاتمة. وتوضح المقدّمة والخاتمة نسبة التشريع إلى الآلهة وتعتبره صادراً عنها. ويوضح تشريع حمورابي سوء المصير الذي ينتظر من تحدّثه نفسه يوماً ما، وإلى الأبد، تغيير شيء فيه، وهو يعد بالسعادة كل من يحرص عليه ويقوم على سلامة تطبيقه.

الجرائم المُعاقَب عليها بالإعدام في أثناء حكم حمورابي:

1 - السرقات الكبرى.

2 - إخفاء المسروقات التي أُخذت بالعنف.

3 - إزالة الوشم عن وجه العبد لإخفائه عن مالكه.

4 - القتل.

5 - زنى المرأة.

6 - اغتصاب المرأة.

7 - الشهادة بالزور في جريمة القتل.

8 - البلاغ الكاذب عن ارتكاب جريمة قتل وهمية.

9 - محاولة التهرّب من أداء الخدمة العسكرية.

مميزات تشريع حمورابي:

1 - اختصار الجرائم الدينية حتى أصبحت قاصرة على جريمتي السحر وانحراف الراهبة التي ترتاد الملاهي.

2 - اشتراط وجود العمد في القتل، ليستحق القاتل الإعدام، فقد نص في المادتين 207 و208 على أنه: «إذا تسبّب الضارب بموت الضحية، وأقسم الفاعل بأنه لم يضرب ضحيته عن قصد، فإنه

يدفع ثلاثين مثقالاً من الفضة إذا كان المقتول مواطناً، وعشرين مثقالاً إذا كان المقتول لا يتمتّع بالمواطنية».

3 - إلغاء صيغة المماثلة إلا في حالة واحدة، هي عندما يأخذ الدائن ولد المدين رهينة لسداد دينه، ويعامله معاملة قاسية، فيموت من جرائها، فإن ولد هذا الدائن هو الذي يُعدم. وكان الإعدام يُنفّذ بطرق مختلفة كالشنق والقتل بالسيف والإغراق والحرق، وكانت المرأة التي تقتل زوجها أو تشترك في قتله تُعدم «بالخازوق».

الإعدام في الشريعة اليهودية 25

عرف التشريع اليهودي القديم المسؤولية الجماعية، ففي سفر التكوين - الإصحاح الرابع والثلاثين - الآيتان 26، 27، أن «دينا» ابنة «ليما» قد أخذها «شكيم ابن جمور» واضطجع معها وأذلّها، ولكنه أعلن أنه يريد أن يتزوجها، غير أن أخوتها قتلوا الخاطف وأباه انتقاماً لشرف أختهم الملوّث...

وبعد ذلك بدأ نفوذ السلطة المركزية يشتد بدلاً من النفوذ الفردي، وأصبحت العقوبة تتّجه إلى الفاعل وحده، وأصبح لا يعاقَب بالموت إلا من ارتكب خطأً شخصياً.

الجرائم المعاقب عليها بالإعدام في الشريعة اليهودية:

1 - السحر.

2 - عبادة الأوثان.

3 - الارتداد.

4 - تحقير الرب.

5 - كل يهودي يشتغل يوم السبت «لأن اليوم السابع سيكون راحة كاملة» 6 - الزاني والزانية.

7 - اللواط.

8 - تُعدم كل فتاة تخفي عن زوجها أنها ليست عذراء.

9 - يُعدم مرتكبو الاتصال الجنسي بالمحرمات.

10 - إتيان الحيوانات.

وكان تنفيذ الإعدام يتم بالرجم بالحجارة في جميع الجرائم، باعتبار أن الحكم يصدر عن القضاة ولكن الشعب كله هو الذي ينفذه، وبعد الرجم كانت تعلَّق الجثة على شجرة طوال النهار، ولكن يجب دفنها قبل حلول الليل.

وكان الإعدام يتم حرقاً بالنسبة إلى تعهّر ابنة الكاهن، والاتصال الجنسي بالأم أو الأخت.

الإعدام في المجتمع الجاهلي

كان العرب في العصر الجاهلي مجموعات من البدو الرحل، تضرب في الأرض بحثاً عن الماء والكلأ، وكان المجتمع العربي يقوم على أساس القبيلة، وهي تتكوّن من مجموعة من الأسر تعتبر نفسها ذات أصل واحد مشترك، والرابطة التي تصل ما بين أفراد القبيلة هي رابطة الدم التي قد تكون أول الأمر حقيقة، ولكنها سرعان ما تتقلّص، إذ تتداخل في بنيان القبيلة عناصر غريبة وتنخرط فيها.

ويقوم بحكم القبيلة عند العرب «شيخ»، والغالب أن يكون من أسرة معروفة بشرف الأصل. وكانت كل قبيلة تُعتبر وحدة سياسية مستقلة، لكل منها نظام قانوني بحكم ما بين أفرادها، ويعتبر كل من لا ينتسب للقبيلة عدواً.

الجرائم المعاقب عليها بالإعدام:

لم يكن الإعدام منتشراً في المجتمع الجاهلي، وإن كان لكل قبيلة نظامها المستقل، وكان للرجل الجاهلي على امرأته وأولاده حق الحياة والموت، ولم تكن الأم سوى وعاء للجنين.

وكانت جريمة الزنى معاقَب عليها بالإعدام خوفاً من اختلاط الأنساب، وإذا وقع قتل بين اثنين من عشيرة واحدة، أو من عشيرتين مختلفتين، كان من حق ولي الدم أن يثأر في الحال أو في خلال أيام قليلة، فإن تم ذلك يكون الأمر قد انتهى، وإلا تدخّل الحكماء لبذل المساعي الحميدة، وينتهي الأمر بتسليم القاتل للاقتصاص منه أو لدفع الديَّة، وكان تسليم القاتل إلى أهل المقتول معروفاً لدى الرومان...

عقوبة الإعدام ما بين الإبقاء والإلغاء

انقسم الفلاسفة وعلماء الاجتماع وفقهاء القانون إلى تيارين متناقضين، حول مدى جدوى عقوبة الإعدام، فذهب التيار الإبقائي إلى العمل على إبقاء هذه العقوبة، في حين ذهب التيار الإلغائي إلى العمل على هدم حجج التيار الإبقائي وإبراز حججه التي تدعو إلى إلغاء هذه العقوبة.

التيار الإبقائي الإعدام والردع:

من أهم الحجج المؤيدة لإبقاء عقوبة الإعدام كونها مخيفة، يهلع قلب من تسوّل له نفسه الإقدام على جريمة يكون معاقَباً عليها بالإعدام، «إذ يجدون أمام الدافع إلى الجريمة مانعاً قوياً، وهو حرمانهم من حقّهم في الحياة، هذا التهديد في الواقع من أهم وسائل المنع العام وأكثرها فاعلية»[26].

للردّ على هذه الحجة نقول: إن المجرمين لم يرتدعوا، بمعنى أنه إذا كان للردع دور هام في إجهاض نوايا المجرم الإجرامية، فلماذا لا يزال هناك مجرمون يرتكبون جرائم معاقباً عليها بالإعدام حتى الآن، بل الأدهى من ذلك أن «آرثر كوستلر»[27] يقول إنه: «في العصر الذي كان فيه النشّالون يُعدمون في إنكلترا، كان لصوص آخرون يمارسون مهازلهم بين الجمهور المحتشد حول المشنقة التي يُشنَق عليها زميلهم!...

لقد أُجري إحصاء في مطلع القرن العشرين في إنكلترا يظهر أن «170» من أصل «250» مشنوقاً قد سبق لهم وشهدوا شخصياً تنفيذ إعدام أو إعدامين. وإذا كنا نرغب في أن يكون العقاب عبرة لمن يعتبر، فإنه من باب أولى، أن ينفَّذ الإعدام علناً وأن تنقله الشاشة الصغيرة حتى يراه الجميع، فيرتعدوا، لكن عمليات التنفيذ في أغلب البلدان ما عادت تتم بشكل علني، بل تُجرى في باحة السجون أمام عدد قليل من الاختصاصيين، ولم تعُد وسيلة العلانية مُطبقة إلا في قلّة من الدول، ومنها جمهورية أفريقيا الوسطى والسلفادور، ويطلب المشرع تنفيذ العقوبة في ذات المكان الذي وقعت فيه الجريمة، ويأخذ بوسيلة التنفيذ العلني لعقوبة الإعدام أيضاً تشريع إيران ولاوس وكمبوديا وشيلي.

والحقيقة أن العلانية في التنفيذ تعتبر نظرية في كمبوديا وشيلي وليست واقعية، ففي كمبوديا يبعد رجال الأمن الأفراد في أثناء التنفيذ، وفي شيلي يُكتفى بأن يكون من الممكن حضور ثلاثين شخصاً أثناء التنفيذ، فتعتبر العلانية متوافرة. وفي دول أخرى يكون التنفيذ علانية جوازياً في بعض الحالات الاستثنائية كالمغرب وأستراليا.

وإجمالاً فإننا لا نستطيع أن نزعم أن الإنسان لا يخشى الموت، وأن الحرمان من الحياة من دون أدنى شك، أقصى عقوبة، وإذا كان الخوف من الموت أمراً بديهياً، فمن البديهي أيضاً أن هذا

الخوف لم يكفِ لردع الأهواء البشرية، فالانتقام والشرف والحب والكرامة تستطيع كل منها بسهولة أن تواجه الخوف من الموت، وبذلك لا يكون للردع العام دور أساسي، حيث إن الدافع للقتل يقصي الخوف من الموت. وغالباً ما يُصدر القاتل حكماً ببراءته قبل أن تصدر المحكمة حكماً بإدانته، فأغلبية المحكوم عليهم بالإعدام يكونون مقتنعين بعدالة قضيتهم. وعادة الثأر والجرائم التي ارتُكبت تحت مظلته تعتبر عادلة بالنسبة إلى مرتكبيها، بل ويستحقون التكريم من قبل ذويهم، فالأفضل والحالة على هذا النحو، أن نعمل على نشر الوعي ما بين الجماهير على أن نعدمهم.

الإعدام والرأي العام:

يذهب التيار الإبقائي إلى القول بأن عقوبة الإعدام مقبولة لدى الرأي العام، وخاصة العاملين في مجال الأمن أو إدارة المؤسسات العقابية، أي إن الرأي العام قد ألِفَها واطمأنَّ إليها. فلماذا نقلب قواعد حياتنا القانونية من أجل عدد ضئيل من القتَلة والأشرار؟

نحن نعتقد بأن هذا الرأي يجانبه الصواب، وذلك لأن الرأي العام لا يتّسم بالثبات والاستقرار، ودائماً يكون متأثّراً بوسائل الإعلام، وتتّسم مواقفه عادة بردود الأفعال، لا بالموقف الثابت النابع من خلال الوعي العام بضرورة الإبقاء أو إلغاء عقوبة الإعدام. وعلى سبيل المثال، لقد عمّت التظاهرات إيطاليا عند اغتيال جنرال في الشرطة العام 1981 م، وفي هذه الفترة أيضاً خُطف القاضي «جيوفاني دوروسو»، فعمّت التظاهرات شوارع إيطاليا مطالبة بعودة عقوبة الإعدام، وذلك كرد فعل فقط لهذين الحدثين. وفي منتصف العام 1982 م. عمت التظاهرات في إيطاليا أيضاً مطالبة بإلغاء عقوبة الأشغال الشاقة، وذلك بعد اكتشاف حالة بريء قضى حياته في السجن محكوماً عليه بالأشغال الشاقة.

من خلال هذين المثالين المتناقضين يتّضح لنا عدم جدوى الرأي العام، باعتباره حجة يستند إليها أنصار التيار الإبقائي، فيكفي أن تتبنّى الصحف ووسائل الإعلام المرئية قضية ما، حتى نجد أن الرأي العام مؤيد لما بُثّ في وسائل الإعلام، والأكثر عاطفة سيتبنّاه الرأي العام. وهكذا، ففي مسرحية «يوليوس قيصر» لوليم شكسبير، بعد أن قتل «بروتوس» القيصر يوليوس، وقف بروتوس وأقنع جمهرة الناس بأن مقتل يوليوس قيصر كان من أجل الحرية، وأن ذلك عدل، واقتنعت تلك الجمهرة بذلك. ثم ما لبث «أنطونيو»، الصديق الوفي ليوليوس، أن استمال الجماهير عاطفياً موضحاً أنه جاء ليرثيه لا ليمدحه. والحقيقة أنه مدحه وعدّد مآثره، فسرعان ما اقتنع الناس بالظلم الذي وقع على يوليوس، أي إن الرأي العام وقف إلى جانب «أنطونيو» بعد لحظات قليلة من وقوفه إلى جانب بروتوس.

وهكذا يتضح لنا أن الرأي العام لا يصل إلى حد أن يكون حجّة يُستند إليها، ما دامت أجهزة الإعلام الرسمية هي التي تؤثر في هذا الرأي وتشكّله، وخاصة في دول العالم الثالث.

وأما عن الإضافة المتعلّقة بأن الشعور العام نحو احترام الحياة الإنسانية قد ضعُف، فإنهم يدللون

على ذلك بكثرة حوادث الخطأ غير العمد.

فإننا نقول إن احترام الحياة الإنسانية ضعيف منذ القدم، وإلا فأين احترام الحياة الإنسانية عندما قُتل «30» ألف شخص واعتُقل «50» ألف شخص في كومونة باريس[28]، وأين احترام الحياة الإنسانية في غواتيمالا؟ حيث أكدت منظمة العفو الدولية[29] أن حكومتها شنّت حملة منظّمة واسعة النطاق من القتل والتعذيب، أُديرت من مكاتب القصر الوطني بإشراف الرئيس «روميو لوكاس» بنفسه. وجاء في تقرير المنظمة أن نحو ثلاثة آلاف شخص قد اغتيلوا بعد اعتقالهم طوال الشهور العشرة الأولى من العام 1980م، وأن مئات آخرين قد اختفوا، فأين إذاً احترام الحياة الإنسانية، وهل يتحقّق ذلك من خلال الإعدام؟

الإعدام حق للدولة:

يقول أنصار التيار الإبقائي: إن من حق الدولة حماية النظام الاجتماعي، وإعدام أي فرد يصدر منه ما يدل على أنه أصبح يمثّل خطراً يهدّد هذا النظام.

ونحن نعتقد بأن من حق الدولة حماية النظام الاجتماعي، ولكن يجب أن يتم ذلك في حدود معيّنة لا يجوز تجاوزها. فمن الممكن أن تحافظ الدولة على النظام الاجتماعي مع إلغاء عقوبة الإعدام... وهل الدول التي ألغت هذه العقوبة لا تحمي نظامها الاجتماعي؟ إن الإنسان هو ابن ظروف نشأته، ولو هيأت الدولة الظروف الصالحة لأُناسٍ صالحين، لأصبحوا هكذا. وعلى حد تعبير المفكّر الفرنسي جان جاك روسو[30]: «وُلد الإنسان طاهراً فأصبح في العالم فاسداً». كما كتب جيلبير سلدر[31] عن أهمية الظروف قائلاً: «لو غيرت بيئة ثلاثين من الهوتنتوت Hotte - شعب في جنوب أفريقيا - بثلاثين طفلاً من أرستقراطيي الإنكليز، فسيصبح الأرستقراطيون هوتنتوت من كل النواحي العملية، وسيصبح الهوتنتوت محافظين صغاراً»، أي إن الإنسان نتاج بيئته، وبتعبيرٍ آخر فإن كل مجتمع يستحق مجرميه، ومن حق الدولة أن تحاكم المجرمين حفاظاً على النظام الاجتماعي، ولكن ليس إلى حد إعدامهم.

موقف المشرّع المدني:

إن الاتجاه الغالب بين التشريعات المقارنة هو الإبقاء على العقوبة، ولقد ظفر هذا الاتجاه بتأييد عدد من المفكّرين الكبار أمثال روسو، الذي فلسفها بنظريته الشهيرة عن العقد الاجتماعي. فالفرد الذي قبل مختاراً - بعقد يبرمه مع المجتمع - أن يتخلّى عن الانتقام الفردي مقابل حماية المجتمع له، يكون قد قَبِل سلفاً بالتخلي عن حياته، فيما إذا فُصم هذا العقد واعتدى على حياة شخص آخر. ولقد قبل العقوبة أيضاً قطبا علم الجريمة «لمبروزو» و«جار فالو»، وهما من زعماء المدرسة الوضعية، لتخليص المجتمع من رجل لمبروزو الأشهر، وهو

المجرم بالفطرة.

إن اتصاف الظاهرة بالعمومية، لا يعني صحّتها، ولكنه يضفي عليها الشرعية، فكون أغلب التشريعات المقارنة ما زالت مُبقية على عقوبة الإعدام، فإن هذا لا يعني بالضرورة أنها صالحة.

أما عن جان جاك روسو، فإنه ليس من المنطقي أن يقبل الإنسان بالتخلّي عن حياته، إذا فصم هذا العقد الاجتماعي، واعتدى على حياة شخص آخر، خاصة وأن الغالبية العظمى من المحكوم عليهم بالإعدام، يعتبرون أنفسهم مُحقّين من وجهة نظرهم، أي لم يفصموا العقد الاجتماعي.

أما عن لمبروزو، فإن المجرم بالفطرة غير موجود، ذلك أن الإنسان وليد بيئته. والواقع أن الاتجاهات نحو الإلغاء، لم تحدث أثرها في كثير من الدول بسبب التقاليد والدين وبسبب السياسة الجنائية والعقابية السائدة.

هذا عن حجج مؤيدي الإبقاء على عقوبة الإعدام، وتوجد بعض الحجج قليلة الأهمية، كالقائلة بأنها عقوبة تكفيرية، بمعنى أن الذي قتل آخر وحرمه من حياته، يجب أن يُكفِّر بدمه عن خطيئته، وهذه الحجة تحمل في طياتها الانتقام، وهو أمر لا توافق عليه المدارس العقابية الحديثة.

التيار الإلغائي الإعدام ليس حقّاً للدولة:

إن القانون الذي يُجرِّم القتل لا يجوز أن يأمر به، فالتشريعات المختلفة في ماضيها وحاضرها، تتّجه نحو تحريم فعل القتل، والإعدام ما هو إلا قتل من قبل الدولة. وإذا كان للدولة الحق في حماية مواطنيها والدفاع عن مصالحها، فليس من حقها أن تستأصل بعضاً من مواطنيها. والإعدام في حد ذاته لا يزيل آثار الجريمة، إنما هو جريمة جديدة، وقيل أيضاً إن الدولة لم تمنح الأفراد الحياة، حتى يكون لها الحق في سلبها منهم.

الإعدام عقوبة غير مفيدة:

لم يثبت أن البلاد التي ألغت العقوبة، قد زادت فيها نسبة الجريمة، أي إن المجتمع لا يستفيد من تقرير عقوبة الإعدام، ففي تقرير اللجنة المختارة الإنكليزية للعام 1930م[32]، واللجنة الملكية الإنكليزية، ما يفيد بأن جميع الإحصاءات التي أُجريت تؤكّد أن إلغاء عقوبة الموت لم يؤدِّ إلى زيادة في عدد الجرائم.

وفي بعض الدول التي أعادت عقوبة الإعدام بعد إلغائها، لم تنخفض نسبة الجرائم المعاقَب عليها بالموت، بل ثبت أن دولة مثل النمسا، حين أعادت العقوبة عام 1934م، لاحظت بصورة مؤكدة أن الإجرام ارتفع فيها كثيراً، أي إن العقوبة ليست وسيلة وقاية.

وبالإضافة إلى ذلك فهي عقوبة غير رادعة، فعلى سبيل المثال، أُعدم في إيران عام 1970م. خمسة

وسبعون من مهرّبي المخدرات، في سنة واحدة، وعلى الرغم من ذلك، بقيت عمليات التهريب مستمرّة، وأُعدم في الكويت عام 1975م. قاتل واحد، ولم تمض أيام، حتى كتبت الصحف عن جناية قتل ثلاثية ارتكبها مجرم آخر كان يشهد عملية الإعدام، فهل حرّكت رؤية المشنقة شهية هذا القاتل حتى يكون بطلاً لحفلة مشؤومة، وهو الإنسان المهمل الذي لا قيمة له؟... إذاً يكون الإعدام في هذه الحالة محرّضاً لبعض الشواذ المغرمين بحب الظهور. أما ما يقال من أن تنفيذ عقوبة الإعدام عبرة وعظة، فإن العلماء يؤكدون أن هذا التنفيذ يثير الغرائز الوحشية في الإنسان.

ويضيف أنصار هذا الاتجاه أن الجريمة ليست مسؤولية المذنب وحده، وإنما ترجع هذه الظاهرة إلى عوامل كثيرة وأغلبها يكون متعلّقاً بالمجتمع، فلا يجوز إلقاء المسؤولية كاملة على عاتق المذنب.

الإعدام عقوبة خطرة إذا وقع فيها خطأ:

إن الخطأ في توقيع عقوبة الإعدام لا يمكن إصلاحه، فالأخطاء القضائية التي لا تثبت إلا بعد تنفيذ العقوبة يستحيل إزالة أثرها، إذا كانت العقوبة التي نُفذت هي الإعدام، وقد ثبت فعلاً وقوع أخطاء قضائية من شأنها أن تحدث نزيفاً متدفّقاً في كبرياء الضمير الإنساني.

أسباب كثيرة وراء الأخطاء القضائية:

أ - المتهَم كثيراً ما يعترف كذباً، ومن ذلك أن شخصاً اتُّهم[33] بقتل امرأة، و«عولج» في قسم الشرطة حتى اعترف بقتلها وإلقاء جثتها في النهر، فأُعدم، وبعد عامين عادت المرأة إلى بيتها. وفي إحدى المدن العربية اتّهم شخص بقتل ثري وإلقائه في بئر، ونتيجة ل«ضغوط» جسدية تعرّض لها في أثناء التحقيق أدلى المتهم ب«اعترافات كاملة»... وكاد يصعد إلى المشنقة، لولا أن أحد المسؤولين، لم يرتح ضميره إلى هذه الاعترافات، فاستجوب زوجة أحد أصدقاء القتيل، وعرف منها أن القاتل هو زوجها لأنه مدين للقتيل بمبلغ كبير، وعجز عن سداده، وأنها عاونته في نقل الجثة إلى البئر.

ب - قد تكون الأخطاء القضائية بسبب شهود العيان، فالشهادة بيّنة من البيّنات العديدة، ولقد أثبتت الدراسات الحديثة أن كثيراً من الشهادات مضلّلة، رغم مظاهر الطيبة والبراءة التي تبدو على أصحابها. فالشاهد قد يخطئ لضعف في الذاكرة أو في حاسة الرؤية، أو في السمع، ومن شأن ذلك أن يضلّل القضاء، سواء بحسن نية أو بسوء نية، فالنتيجة واحدة، والطريق إلى النار محفوف بالنوايا الطيبة.

ج - من المحتمل أن ترجع الأخطاء القضائية إلى القرائن، بالرغم من أن القرائن لا تُخطئ، فإن المختص في بعض الأحيان يقع في الخطأ فيضلّل القضاء... فلقد اتُّهم زوج[34] بقتل زوجته بالسم الممزوج بالكحول، ولم يمضِ على زواجهما شهران، كانا فيهما على أحسن ما يكون. وأُرسلت

أحشاؤها إلى التحليل، فجاء الجواب أن كمية الكحول فيها كثيرة، وطالب النائب العام بإعدام المتهم... ولكن المحامي اكتشف أن مساعد الطبيب المحلّل، كان ينظف الأواني الزجاجية بالكحول، وأنه وضع الأحشاء فيها مدة يومين فامتصت كمية كبيرة منها، ولذلك ظهرت في التحليل كأنها أداة جريمة... وأنقذ هذا الاكتشاف المتهم البريء...

د - كما أن الأفكار السائدة في المجتمع تلعب دوراً في تجريم المرء أو تبرئته، كذلك أيضاً تطوّر الفكر العلمي نفسه، فلقد اتهم صيدلي فرنسي بقتل زوجته بالسم، واكتشف التشريح وجود بعض ملليغرامات من الزرنيخ في جسمها... فأدانته المحكمة، ولكنها لم تحكم عليه بالإعدام، بل قضت عليه بالأشغال الشاقة المؤبّدة، وظل السجين البريء يعلن على مدى عشرين عاماً - وهو في السجن - أنه بريء، ولا مجيب، حتى ثبت علمياً عام 1923م، أن جسم الإنسان العادي يمكن أن يحتوي، بصورة طبيعية، على هذه الكمية من الزرنيخ... وتقرّرت إعادة محاكمته، فبُرّئ وعاد إلى الحرية شيخاً.

ولقد تمت إدانة المجرم الفرنسي «جان كالاس»[35] العام 1762م. ظلماً بتهمة قتل ابنه في مدينة «تولوز» بفرنسا، ونُفذت فيه عقوبة الإعدام بإلقائه في النار حياً، فحمل الفيلسوف الساخر «فولتير» على هذا الحادث حملة شعواء في كتاباته إلى أن أُعيد النظر في القضية، وبُرّئ «جان كالاس» وأعيد إليه شرفه واعتباره، ورُدّت أمواله المصادرة إلى ورثته...

ومن بين الذين لا يستحقون الإعدام وأُعدموا - شخص أميركي يدعى «بيارتون آبوت» فلقد نُفّذ فيه حكم الإعدام في 15 آذار/ مارس 1957م. في كاليفورنيا، لاتهامه بقتل ابنه وهو في الرابعة عشرة. ورغم أن آبوت أكد باستمرار براءته، إلا أن الحكم صدر عليه. وقد حُدد موعد التنفيذ في الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم.

وفي التاسعة وعشر دقائق، صدر أمر بوقف التنفيذ للسماح للمحامين بتقديم طلب عفو أخير، وفي الحادية عشرة، رُفض الطلب. وبعد خمس عشرة دقيقة، كان «آبوت» يستنشق أولى نفخات الغاز... وفي الساعة الحادية عشرة وثلاثين دقيقة، كان سكرتير لجنة العفو يتكلّم بالهاتف، فقد بدلت لجنة التحقيق رأيها، وبحثت عن الحاكم الذي كان في عرض البحر، ثم طلبت السجن بالهاتف مباشرة، وأُخرج «آبوت» من غرفة الغاز، لكن بعد فوات الأوان... لو كان الطقس عاصفاً فوق كاليفورنيا حينذاك، لما أبحر الحاكم، ولكان من الممكن إنقاذ حياة آبوت، يا لها من سخرية... حيث تتوقّف حياة إنسان على الأحوال الجوية...

المرض النفسي والإعدام:

في دراسات للدكتور عادل صادق على مئتي قاتل وقاتلة، اتضح أن 60٪ منهم[36]، أثبت رسم المخ الكهربائي وجود موجات كهربائية غير طبيعية في أدمغتهم.

وبالنسبة إلى المرض النفسي، فبعض القتلة مصابون بمرض الفصام «الشيزوفرينيا»، ومن أعراض

هذا المرض التبلّد الوجداني، حيث لا يوجد لدى المصاب توازن انفعالي، بمعنى أن هذا الإنسان المريض قد يقتل أي شخص، لأتفه الأسباب. والمثال الآتي يوضح ذلك خير توضيح...

في إحدى ليالي باريس، عاد الابن متأخراً، فعنّفه والده على ذلك، مما أغاظه، فما كان منه إلا أن أمسك فأساً وهوى بها على رأس أبيه حتى تهشّمت، ثم انهال ضرباً بذات الطريقة على أمه... وبعد ذلك خلع ثيابه، وخبأ سرواله، وذهب لزيارة أهل خطيبته، ثم عاد إلى بيته وأخبر الشرطة بأنه وجد والديه مقتولين، وسرعان ما اكتشفت الشرطة السروال الملوث بالدماء، وحصلت دونما صعوبة، على الاعترافات من قاتل والديه... واستنتج الأطباء النفسانيون أن السبب الذي دفع القاتل إلى جريمته كان اغتياظه... بيد أن لا مبالاته الغريبة التي أظهرها في السجن، لا يمكن أن تعتبر طبيعية... قال لمحاميه، مهنئاً نفسه على أن كثيراً من الناس ساروا في جنازة والديه: لقد كانا محبوبَيْن جداً.

ومن بين أعراض مرض الفصام أيضاً، الإحساس بالاضطهاد، كأن يشعر الإنسان بأنه مراقَب ومضطهَد، وأن هناك من يحاول إيذاءه أو قتله، وبهذا فقد يقتل من يعتقد بأنهم مزمعون على قتله، أو اضطهاده... وبعض المصابين بالفصام تطاردهم الهلوسات السمعية التي تأمرهم بقتل أنفسهم أو بقتل الآخرين.

وبعضٌ آخر قد يكون مصاباً بالاكتئاب، وقد يؤدي ذلك لأن يقتل الأب ابنه. ويعتقد بعض الناس أننا في هذه الحالة نكون أمام إنسان شرير يجب إعدامه، ولكن الحقيقة أنه قتل ابنه بدافع حبه له وليس بباعث الشر، فالمكتئب يرى الحياة شديدة السواد... مأساة... معاناة... شقاء... ولذا فهو يقتل أعز الناس لديه لاعتقاده أنه بذلك ينقذه... من عذاب الحياة.

هناك نسبة كبيرة من القتلة تقترب من حدود عشرين في المئة[37] مصابون باضطراب في الشخصية «الشخصية السيكوباتية». فمثل هؤلاء الناس ليسوا مرضى بالفعل، ولكنهم ليسوا أسوياء... وأما عن السفاحين، الذين يطالب الكثيرون بإعدامهم، فإنهم أحق بالعلاج والرعاية من قبل المجتمع... فهم جد تُعساء وحقاً مرضى. قصة السفاح الذي قتل «13» امرأة في مقاطعة «يوركشاير» في إنكلترا خير دليل على هذا، فلقد قال مدير الشركة التي كان يعمل بها السفاح سابقاً: «كيف يكون بيتر سفاحاً في الوقت الذي اختارته الشركة السائق المثالي، وقد طبعت صورته وهو يقود سيارتها على إعلاناتها الملونة؟!».

وكان السفاح هادئاً، بالإضافة إلى ذلك كان زوجاً سعيداً، وشهد الجيران بأنه شاب يتسم بالهدوء، إلا أنه كان ينزع إلى الوحدة وعدم مخالطتهم... وقال الأطباء الشرعيون الذين فحصوا جثث الضحايا، إن عمليات القتل كانت مليئة بالقسوة والعنف، مما يدل على أن السفاح لم يرتكب جرائمه بهدف السرقة وإنما بسبب كراهيته للنساء، فخرج ينتقم من كل امرأة يلتقي بها ويقتلها بوحشية.

فهل يعقل أن تكون تلك سلوكيات إنسان عاقل؟ لا نعتقد ذلك، فبداخل هذا المتهم سيل جارف من التراكمات المتناقضة التي تعصف بأفكاره يميناً ويساراً، أدّت به إلى أن يكون مريضاً يستحقّ العلاج.

الإعدام عقوبة غير عادلة:

يعتبر الإعدام في نظر الكثيرين عقوبة غير عادلة، وجزاءً باهظ الثمن، وذلك للأسباب الآتية:

أ - لأنها تسحب البساط من تحت قدمَيْ المتهم، ولا تجعل أمامه فرصة للحياة الشريفة بعد تقويمه، كما يصعب التناسب بين هذه العقوبة وبين خطأ المتهم، فهناك عوامل كثيرة لتحديد مدى خطأ المتّهَم وهذه العوامل والمعايير متغيرة، فما يُعتبر خطأ في مجتمع، قد يستحق التقدير في مجتمع آخر.

ب - لأنها لا تقبل التدرّج بحسب الظروف الخاصة بالجاني ولا بجريمته، أي إن هذه العقوبة ليس لها حد أقصى أو أدنى.

ج - تعتبر العقوبة قاسية على الشخص مهما كانت الوسيلة التي تنفذ من خلالها، لأنه إلى الآن لا توجد وسيلة لتحقيق الموت الفوري، وبصدد هذا الموضوع، فقد قدّم الدكتوران «بنيد وليفر» و«فورني»[38] تقريراً إلى أكاديمية الطب في فرنسا يوضحان فيه حالة الشخص بعد إعدامه مباشرة. ويقول التقرير: «إذا استطعنا أن نسمح لأنفسنا بتقديم رأينا حول هذا الموضوع، فإن مثل هذه المشاهد فظيعة الإيلام، الدم يخرج من الأوعية بقوة نبض الودجين المقطوعين، ثم يتخثَّر، وتتشنّج العضلات، وتتقلّص ألياف‌ها بطريقة مذهلة، ويتموّج المعي، وينبض القلب بحركات غير منتظمة، ناقصة، أخّاذة... ويتقلّص الفم في لحظات معينة بتعبير اشمئزاز، وتتسع العينان، لكنهما لحسن الحظ لا تنظران، وإذا لم يكن فيهما ذلك الكدر وذلك اللون الحليبي الذي تتلوّن به الجثث، إلا أنهما باتتا لا تتحرّكان وأن شفافيتهما حيّة، لكن شخوصهما ميتة، وهذا كله قد يدوم دقائق، بل ساعات، لدى أفراد طبيعيين، إن الموت ليس فورياً. وعلى هذا فإن كل عنصر حيوي يظل على قيد الحياة، بعد قطع الرأس... ولا يبقى للطبيب إلا ذلك الانطباع من تجربة فظيعة عن عملية تشريح قاتلة يتبعها دفن سابق لأوانه».

الإعدام عقوبة غير منطقية وليس فيها ما يبرّرها:

تعتبر عقوبة الإعدام غير منطقية لأنها «قتل من ظَّلم» كما قال «بكاريا»[39]، فالمجرم يرتكب جريمته تحت دوافع انفعالية أو مرضية، في حين أن المجتمع يقرر إعدامه وينفّذ الإعدام بهدوء وروّية، فالدولة في هذه الحالة لا تزيل آثار الجريمة، وإنما تعاود ارتكاب جريمة أخرى.

ويضيف أنصار هذا الاتجاه بأنه لا يجوز الاستناد إلى حالة الضرورة، فشرط حالة الضرورة التي تبرّر القتل: الدفاع الشرعي، ليست متوافرة بالنسبة إلى الدولة عند تنفيذها لعقوبة الإعدام، نظراً لانتهاء حالة الخطر بوقوع الجريمة، ولوجود المتّهم تحت تصرّف الدولة التي يحقّ لها أن تحمي المجتمع

منه بوسائل أخرى غير قطع رأسه.

الإعدام يتعارض مع الأغراض الحديثة للعقوبة:

كانت العقوبة في مفهومها القديم تهدف إلى الزجر والردع والإيلام، فكانت بمثابة انتقام للمجتمع من الجاني. أما العقوبة وفق السياسة العقابية الحديثة، فهي لا تهدف إلى الانتقام بل إلى الردع والإصلاح في آن واحد. وبالتالي فإن الردع من الممكن تحقيقه وبوسائل أخرى غير الإعدام. وعقوبة الإعدام تتنافى مع الغرض الإصلاحي من العقوبة... إذ إنها لا تعطي للجاني فرصة للإصلاح وإعادة تقويم ذاته. والعقوبة تحرم المجتمع من عضو قد يُسهم جدياً في الإنتاج.

الإعدام وشخصية العقوبة:

ينبغي للعقوبة أن تكون شخصية دائماً، فلا توقع على غير الجاني مهما قربت صلته به. وكانت الشرائع القديمة تعرف أحوالاً توقع فيها العقوبة على الجاني أو أقربائه. أما الآن فقد استقرّ في القوانين كلّها أن المسؤولية الجنائية تقع على الجاني وحده. وتتعارض عقوبة الإعدام مع شخصية العقوبة، إذ إن إعدام أحد الأفراد وإن كان يمس أساساً المتهم إلا أن أثر الإعدام يمتد إلى غيره من أفراد الأسرة، خاصة إذا كان المحكوم عليه بالإعدام هو عائل الأسرة.

طبقية الإعدام:

إن تاريخ المجتمع على مر العصور، لم يكن سوى تاريخ صراع بين الطبقات، فالصراع كان محتدماً بين الحُر والعبد، والنبيل والعامي، والسيد الإقطاعي والقنّ، والمعلّم والصانع.

وهكذا فإننا نستطيع أن نقسم المجتمع إلى فقراء أغلبية وأغنياء أقلية. وأغلبية من المحكوم عليهم بالإعدام من الفقراء، وذلك لما تتمتّع به طبقة اجتماعية من دون أخرى من نفوذ توظّفه لصالح أبنائها، وأيضاً لأن الاستعانة بكبار المحامين يثقل كاهل الفقراء ولا يقدرون عليه، وذلك بعكس الأغنياء الذين يستعينون بعدة محامين من أجل الدفاع عنهم. وتؤكّد الدراسات في الولايات المتحدة الأميركية أن مجتمع الزنوج ينال القسط الأكبر من عقوبة الإعدام، فبين العامين 1930 - 1980م. نُفّذَ حكم الإعدام في «2066» من السود و«1751» من البيض، مع أن السود لا يتجاوزون ثُمن (8/1) عدد السكان.

الجرائم المعاقب عليها بالإعدام في العصر الحديث:

أولاً: الجرائم الموجهة ضد الأشخاص.

1 - القتل مع سبق الإصرار: وهو معاقب عليه بالإعدام في أغلبية البلاد المحتفظة بعقوبة الإعدام.

2 - القتل العمد: وهو يعاقب عليه بالموت في بلاد قليلة، أكثرها إفريقية.

3 - القتل في أثناء مبارزة: وهو مقصور على عدد من الولايات الأميركية.

4 - جريمة الغش: وهي موجودة في بعض الولايات الأميركية.

5 - التسميم: فرنسا والعراق واليابان والمغرب ومصر وبعض الجمهوريات الجديدة.

6 - قتل الأب أو الأم أو الولد: معاقب عليها بالإعدام في فرنسا، وتركيا، ولبنان، والمغرب، والعراق، واليابان، وغيرها.

7 - القتل الذي يرافق أو يعقب ارتكاب جريمة أخرى: مصر، ولبنان، ودول أخرى.

8 - قتل الشرطي أو الموظف في أثناء الخدمة.

9 - ضرب أو جرح ولد بصورة عنيفة حتى الموت.

10 - الحريق المتعمّد الذي ينجم عنه موت أحد: مصر، يوغسلافيا، ودول أخرى.

11 - الاشتراك في انتحار ولد أو مخدر أو مجنون: السودان، والهند، ودول أخرى.

12 - إجهاض امرأة تسبَّب في موتها.

13 - اغتصاب امرأة بالعنف: وتكون عقوبة الإعدام في حالتين:

أ - إذا نشأ عنه موت: كما في اليابان، وتركيا.

ب - الاغتصاب العادي: كما في الصين، وبعض الولايات الأميركية.

14 - المتاجرة بالمخدرات في بعض الحالات الخطيرة.

15 - الاعتقال التعسفي مع التعذيب الجسدي: الصين، وتشيكوسلوفاكيا، ودول أخرى.

16 - الشهادة الكاذبة التي تتسبّب في صدور حكم بالإعدام: الهند، والعراق، ودول أخرى.

17 - خطف القاصر:

أ - بعض البلاد تشترط موت المخطوف كفرنسا، والمغرب.

ب - بعضها لا تشترط، وإنما يجب أن يتم في ظروف خاصة كطلب فدية، كما في تشيلي.

18 - الأضرار الخطيرة التي تتسبّب للمواصلات: بعض الولايات الأميركية.

ثانياً: الجرائم الموجّهة ضد الأموال والجنايات الاقتصادية.

1 - السرقات الموصوفة، أو المشدّدة، خاصة مع استعمال السلاح، كما هو الحال في بعض الولايات الأميركية، وفرنسا، واليونان.

2 - القرصنة مع العنف: أستراليا، وكندا، وشيلي، وإسبانيا، وغواتيمالا... وغيرها.

3 - الاحتكار أو رفع الأسعار بصورة غير مشروعة وخطيرة واختلاس أموال الدولة.

4 - تزييف النقد والمضاربة بالعملات الصعبة.

5 - الاعتداء الخطير على الملكية الاشتراكية.

ثالثاً: الجرائم الموجّهة ضد الدولة والنظام العام.

1 - الخيانة... كما في العديد من الدول.

2 - التجسّس: كما في الصين، وإسبانيا، وفي القانون الفيدرالي بالولايات المتحدة الأميركية، وفرنسا، واليونان، وإيران، والمغرب، ومصر، وتشيكوسلوفاكيا السابقة.

3 - الاتصال بالعدو أو التعاون معه: كما في دول عديدة.

رابعاً: الاعتداء على السلامة الداخلية للدول.

ويكون ذلك في الحالات التالية:

1 - العصيان المسلح والثورة أو التآمر على الدولة.

2 - القتل المرتكب في أثناء اضطرابات أو ثورة: بعض الولايات الأميركية.

3 - الاعتداء على سلامة رئيس الدولة وبعض الشخصيات العامة.

4 - النهب والقتل الجماعي والتخريب.

5 - الزنى، وكان يعاقب عليه بالإعدام في أفغانستان سابقاً، وتم تعديل القانون الجنائي التركي حديثاً كمستحقات الدخول في دول الاتحاد الأوروبي.

ملحق (1) قواعد الأمم المتّحدة ومبادئها التوجيهية في القضاء الجنائي

«عقوبة الإعدام»[40]

1 - أهابت الجمعية العامة للأمم المتحدة، في قرارها 32/91، المؤرّخ في 8 - كانون الأول - ديسمبر العام 1977م، بـ «مؤتمر الأمم المتحدة السادس لمنع الجريمة ومعاملة المجرمين»، أن يبحث مختلف جوانب تطبيق عقوبة الإعدام وإمكانية الحد من تطبيقها، بما في ذلك العمل بطريقة أكثر رأفة في تطبيق القواعد المتّصلة بالعفو، أو تخفيف العقوبة أو تأجيلها، وتقديم تقرير عن ذلك، مشفوعاً بتوصيات إلى الجمعية العامة في دورتها الخامسة والثلاثين. كذلك رجت الجمعية العامة من لجنة منع الجريمة ومكافحتها أن تنظر في المكان المناسب من جدول أعمال المؤتمر السادس الذي ينبغي أن يدرج فيه هذا الموضوع، وأن تُعدَّ وثائق عن هذه المسألة.

2 - وبعد ذلك قرّرت لجنة منع الجريمة ومكافحتها، في دورتها الخامسة، إدراج موضوع عقوبة الإعدام البند «7» في جدول الأعمال المؤقت للمؤتمر، وهو البند المعنون «قواعد الأمم المتحدة ومبادئها التوجيهية في القضاء الجنائي: من وضع المعايير إلى التنفيذ». كما قررت اللجنة «ECN. 588/5 الفقرة 66» أن تقدّم الأمانة العامة ورقة عمل مستقلّة عن عقوبة الإعدام تضحى دليلاً للمناقشة يتم إعداده وفق الشرط الذي حدده قرار الجمعية العامة 2857 «د - 26» و32/61، وهو أن يكون الهدف الذي ينبغي السعي إلى تحقيقه في ميدان عقوبة الإعدام هو إلغاء هذه العقوبة.

3 - ومن آن لآخر تُعرِّف المحافل الدولية للعلماء والأفراد، أو المنظمات المعنية بمسألة عقوبة الإعدام، عن موقفها إزاء هذه العقوبة. ففي عام 1967م. عقدت الحلقة الدراسية الدولية للاحتفال بالذكرى المئوية لإلغاء عقوبة الإعدام في البرتغال، وأوصت هذه الحلقة الدراسية بـ«الإلغاء العالمي النهائي لعقوبة الإعدام»، آخذة في اعتبارها أنه لم توجد أدلة على الأثر الردعي لعقوبة الإعدام، وأن هذه العقوبة «لا إنسانية» أيضاً، وأنها قد تُستخدم في القمع وتستبعد إعادة التأهيل.

وأوصت كذلك بالاستعاضة عن عقوبة الإعدام بعقوبات أخرى، وبأن يجري فوراً، تحقيقاً لهذه الغاية، إيقاف العمل بعقوبة الإعدام في الدول التي تؤيد الإبقاء عليها.

4 - ولقد طُرح موقف ضد عقوبة الإعدام في الندوة المعنية بحقوق الإنسان والحريات الأساسية في الوطن العربي، والمعقودة في بغداد في الفترة من 18 إلى 20 أيار/ مايو 1979م، وأوصى ممثلو جامعة الدول العربية، وهيئاتها المتخصّصة، وعدة منظمات دولية معنية بحقوق الإنسان، وعدد من المنظمات المهنية والشعبية بصورة مشتركة، بإلغاء عقوبة الإعدام.

5 - وقد عارض عدد كبير من المنظّمات غير الحكومية عقوبة الإعدام لمدة طويلة، وفي

مؤتمر الأمم المتحدة الخامس لمنع الجريمة ومعاملة المجرمين، المنعقد في جنيف عام 1975م، قدّمت 26 منظمة غير حكومية، ذات مركز استشاري لدى المجلس الاقتصادي والاجتماعي، بياناً مشتركاً يدعو - في جملة أمور - جميع الحكومات التي ما زالت تأخذ بعقوبة الإعدام إلى وقف العمل بها. وفي عام 1977م، نظّمت هيئة العفو الدولية مؤتمراً دولياً في استوكهولم حول إلغاء عقوبة الإعدام، حضره مندوبون من جميع مناطق العالم، وأصدر هذا المؤتمر إعلاناً دان فيه عقوبة الإعدام بوصفها «عقوبة قاسية لا إنسانية مهينة»، إذ هي انتهاك لحق المرء في الحياة. وأشار أيضاً إلى أن عقوبة الموت تستخدم كثيراً كأداة للقمع ضد جماعات المعارضة والجماعات العرقية والدينية والفئات المعدمة، وأن فرض عقوبة الإعدام يستثير النوازع الوحشية في جميع من يشتركون في تنفيذها. وواصلت هيأة العفو الدولية حملتها ضد عقوبة الإعدام بأن نشرت تقريراً شاملاً عن هذه المسألة، وهي تصدر كذلك دراسة معلوماتية شهرية للتطوّرات الخاصّة في ميدان عقوبة الإعدام، وتورد فيها بصفة خاصّة أخباراً عن أحكام الإعدام وحالات الإعدام.

ملحق (2) الدول التي ألغت عقوبة الإعدام

1 - فنزويلا... عام 1863 2 - رومانيا... عام 1864 3 - البرتغال... عام 1867 4 - هولندا... عام 1870 5 - كوستاريكا... عام 1880 6 - كولومبيا... عام 1910 7 - النرويج... عام 1905 8 - النمسا... عام 1905 9 - السويد... عام 1921 10 - الأرجنتين... عام 1922 11 - الدومينيكان... عام 1924 12 - الدانمارك... عام 1930 13 - المكسيك... عام 1931 14 - سويسرا... عام 1937 15 - إيرلندا... عام 1940 16 - إيطاليا... عام 1944 17 - أستراليا... عام 1945 18 - ألمانيا الغربية... عام 1949 19 - فنلندا... عام 1949 20 - نيبال... عام 1950 21 - هندوراس... عام 1953 22 - نيوزيلندا... عام 1961 23 - موناكو... عام 1962 24 - إنكلترا... عام 1965 25 - إيرلندا الشمالية... عام 1966 26 - كندا... عام 1967 27 - الفاتيكان... عام 1969 28 - أغلب الولايات المتحدة الأميركية وفي بعض الدول، يحتفظ التشريع الجنائي بعقوبة الإعدام، من حيث المبدأ فقط، من دون تنفيذها فعلاً. كما هي الحال في بلجيكا وبعض الولايات الأميركية، ومن الجدير بالذكر أن قوانين الدول الاشتراكية سابقاً، تصف الإعدام بأنه عقوبة استثنائية. وتضيف المادة «23» من قانون العقوبات الروسي عبارة «إلى أن يتسنى إلغاؤه». وقد نصّت المادة «29» من قانون تشيكوسلوفاكيا السابقة على قيدين للحكم بالإعدام، وهما:

أ - أن تحتّم مصلحة المجتمع توقيع العقوبة.

ب - ألّا يكون في الإمكان إصلاح المجرم بعقوبة سالبة للحرية.

ملحق (3) العقوبة البديلة للإعدام

اتّجه المشرِّع في الدول التي ألغت عقوبة الإعدام إلى إحلال عقوبة سالبة للحرية بدلاً من الإعدام. فالأشغال الشاقة عقوبة بديلة في بلجيكا، وألمانيا، وإيطاليا. وفي أحيان أخرى تكون العقوبة البديلة هي الحبس مدى الحياة، كما في النمسا، وسويسرا، والأرجنتين، والأكوادور، والدانمارك، وفنلندا، والنرويج، وهولندا، والسويد، ونيوزيلندا. وبعض التشريعات لا تنص على العقوبة السالبة للحرية المؤبدة، كما في البرتغال، وقد أُلغيت العقوبة المؤبدة بها العام 1884م، التي كانت بديلاً للإعدام، وطبقاً لمرسوم صادر العام 1936م. ومعدَّل في العام 1954م، أصبح بديل الإعدام عقوبة السجن من عشرين إلى 24 عاماً، وهذا ما انتهجه المشرع أيضاً في جمهورية سان مارينو، وجمهورية الدومينيكان، وأوروغواي، والبرازيل، وفنزويلا.

قيل في الكتاب

السير بين علامات الاستفهام - طلال حيدر 41

هل هي محاولة لكسر الأوهام المقدّسة للإنسان، عبر مسيرته من الظلمة إلى النور؟

أم هي محاولة لجعل الفلسفة في متناول الجميع، وتيسير فهم مبادئ العلم في محطاته المفصلية، التي أوصلته إلى الثقب الأسود للفضاء؟

أم هي رحلة بين الحضارات، لجمع شتات ما تفرّق منها في أمكنة شتّى عبر أزمنة التاريخ الجلي؟

إنها كلها معاً، يلمّ بها مثقف ذهب به علم القانون إلى الإحاطة بقوانين العلم والمعرفة.

هذا هو محمود خضر في «في حقائق الوجود» (الصادر عن المجمع الثقافي في «أبو ظبي»).

المعرفة الإنسانية، فلسفياً، ليست مجموعة من المعارف، إنما هي ائتلاف بين المعاني المستقاة من المعارف، يربطها خيط المعنى الكلّي الذي يكشف عنه العارف المتبصّر، أو ما نسمّيه معاصرة المثقف.

والمعنى الكلي، هو غائية يشير إليها الباحث، فتكون كشفاً يحدث للمرة الأولى، ويصبح هذا الكشف بدوره ركيزة من ركائز الفكر الإنساني.

هذه هي منهجية محمود خضر في استعراضه للأحوال الثلاث، حول الحياة، حول الفلسفة، حول الإعدام، لا ليصل إلى مقامات ثلاثة، إذ لكل حال مقام، بل إلى مقام واحد اسمه الفكر المعاصر، كما يراه المؤلّف «في حقائق الوجود».

آثر السير بين علامات الاستفهام والتعجب، ليبحث عن معنى الوجود، أي ليلجَ الباب المفتوح منذ فجر العقل الإنساني.

وكلما كان الموضوع مولوجاً من قبل، كلما صعب استخلاص جديد منه، أي إضافة معنى على مجرى الفكر، وإضافة رؤية صدامية الدهشة على المتاح المألوف.

إذا كان الفن عامة سؤالاً، فإن الفكر والفلسفة دائماً جواب، وغالباً جوابٌ على أسئلة لم تخطر على بال السؤال، أي على أسئلة ترجّ العقل وتجعله يعيد النظر في مسلّماته البديهية.

كلما استكان الفكر لأجوبة يحسبها نهائية، تأتي أسئلة جديدة في زمن متجدّد، تجعل الفكر يبحث عن أجوبة لم تخطر على بال الجواب، هذه هي مغامرة محمود خضر في «في حقائق الوجود».

يرى الباحث محمود خضر أن لا سبيل لذلك إلا بالحرّية، وأولها حرّية الخيال، أي حرية الحلم... أن يحلم الإنسان بتغيير العالم وفي الـ«حول» الثانية يمرّ على التراث الفلسفي اليوناني، من المدرسة الأيونية حتى «المدينة الفاضلة»، فنجده، وهو يعرض موضوعياً سياق هذه الفلسفة، أنه يميل إلى الأفلاطونية - وهو أمر طبيعي على رجل قانون من الشرق هاجسه العدالة ومبتغاه الفضيلة - المناقب التي لا تُسْتَنْبَت إلا بالتوازن بين قوى النفس، حيث يُفهم الظلم بأنه تنافر بين ما يجب أن يأتلف من هذه القوى التي تمجّد القيمة الإنسانية غاية الوجود. ولكن؟ إذا لم تستتب «المدينة الفاضلة» هل تُعلَّق المشنقة للفكر الضال، وهل نمحو من الوجود الإنسان الذي لم تتوازن فيه قوى الحياة الثلاث: العقلية والشهوية والعضوية؟

يسافر محمود خضر بين الأزمنة، باحثاً عن جواب يتلمّسه في مصر الفرعونية، وفي شريعة حمورابي، وبين أرجاء الجاهلية متتبعاً عقوبة الإعدام في مختلف عصورها وتياراتها، الإبقائية والإلغائية والجنائية، لأنه لا يستطيع أن يتقبّل سلطة إنسانية تجترئ على النفس البشرية، وربما القتل أنفى للقتل.

أسئلته الجديدة تبدأ من سكنى الإنسان في جسده، وإعادة النظر في مفاهيم مقدسة حوّلت هذا الجسد عبر التاريخ إلى سجن للروح، بدل أن يكون مرتعاً لها، منطلقاً من ذلك إلى البحث عن الحقيقة المطلقة «التي لن نصل إليها ما لم ننفض الغبار عن البديهيات، وننبش في أرضية المعاني». قادته هذه الأسئلة إلى سؤال سبينوزا «هل نرغب في الأشياء لأنها خير في ذاتها، أو أننا نقتصر على تمجيد رغباتنا وتبريرها، إذ نسمّي موضوعها خيراً»؟

هناك حقائق مناقبية ثابتة، كالخير والجمال، وإلا فما معنى الفن والإبداع؟

يخرج محمود خضر من السؤال، لا ليدخل في جواب، بل ليقرر إيمانه بحقائق ثابتة تتمحور حول الإنسان - مركز الكون والوجود. فالفكر الإنساني قادر على النفاذ إلى قلب المعرفة، والمعرفة تقوده إلى الدهشة الصاعقة أمام عمر الزمن، فانتقل الإنسان من عمر المكان المغلق إلى عمر الزمان المفتوح...

لقد سرق بروميثيوس النار المقدّسة من «الآلهة» وأباحها للبشر فاتحاً الطريق أمام مفهوم الجريمة والعقاب، وإزالة العوائق المجتمعية التي تقود إلى التخلف.

هذا الإنسان السائر بين الموت والحياة... إلى أين يتّجه في هذا الزمان المفتوح على الأزمنة؟

علّنا نجد جواباً «في حقائق الوجود».

«في حقائق الوجود» لـ محمود خضر دعوة إلى إعمال الفكر وترسم الأسئلة[42] محمد ولد عبدي مقارنة أولية:

إذا كان الكلام على الكلام صعباً - كما يقول أبو حيان التوحيدي - فما بالك إذا ضاعفت المسألة، بأن كان الكلام الأول بالصعوبة بدءاً موسوماً، وبالتأبّي عن كشف معناه متسماً، تطلب مدلوله

فتحسبك تقبض عليه في الدال، فإذا به يتسرّب من بين يديك سائراً بك نحو وجهة غير التي حسبته قاصداً، إذ آثر صاحبه استخدام «لغة لا تقول حقيقة ما ترسمه الحروف بقدر حاجتها إلى التأويل»، وتتدبّر دلالته فإذا بك أمام خطاب تيّاه «آثر السير بين علامات الاستفهام والتعجُّب»، وانبنى على مفاهيم مجرّدة تعمل على إعادة إنتاج ذاتها، والتحرّر من كل سلطة تحجمها، وذلك بطرحها مجدَّداً في دائرة التساؤل والعمل على إعادة صياغتها وفق منطق لا يتكشّف إلا بالتأويل.

تلك أبرز سمات كتاب: «في حقائق الوجود» لمؤلفه محمود يوسف خضر، الصادر في طبعته الأولى عن المجمع الثقافي (1999)، وهو يقوم في بنيته المادية على (156) صفحة من الحجم المتوسّط، ويتمفصل هيكلياً إلى ثلاثة مباحث، هي على التوالي: حول الحياة، حول الفلسفة، حول الإعدام، وينقسم كل مبحث إلى «فصول» تتفاوت من الصفحتين إلى العشر.

ونحن، وإن كنا في هذا المكتوب لا نروم الاقتصار على تقديمه وحسب، فذلك لأننا اخترنا الاستجابة لندائه الداعي إلى إعمال الفكر وترسُّم الأسئلة، فعملنا على إنطاق مسكوته والنظر إليه خطاباً يضمر مشروعاً لا يكتمل إلا بالتأويل.

وسنتتبّع مباحثه بالنظر المجمل، من دون الدخول في الجزئيات، واقفين عند ما تقول بناها مما آثرت مضامينها السكوت عنه.

1 - حول الحياة:

جاء هذا المبحث جماع مفاهيم فلسفية خالصة، كانت عبر تاريخ النظر مجال بحث وتأمّل وتأويل، مما راكم عليها طبقات أيديولوجية كثيفة، تختلف باختلاف الأعصر والأمم والعقائد، فجاء هذا الكتاب ليدفع بها مجدداً إلى السطح، رغبة في إعادة مراجعتها وفق متغيّرات المكان والزمان، واستجابة لتطور أدوات النظر وآلياته في التأويل، ومن أبرز تلك المفاهيم:

1 - 1 - مفهوم الجسد:

لقد شهد هذا المفهوم تحوّلات كبيرة، انتقل عبرها من تجسّده الشيئي، (كقربان دَرَجَ البشر على تقديمه للآلهة مقابل تسهيل أمورهم الحياتية)، إلى تحقّقه الرمزي، حينما (استبدل بقربان حيواني). وهو عبر تلك التحوّلات، كان يسعى إلى تحقيق ذاته كوجود غير ممتهن، له من الأهمية في وجود الإنسان ما للروح والعقل في ذلك.

غير أن مسعاه ذاك كان في كل مرة يصطدم بتصورات فلسفية وأخلاقية ودينية، تؤسّس رؤاها على فصل الظواهر الطبيعية عن الظواهر الروحية، ومن ثم فصل الجسد عن الروح، باعتبار الجسد مكمن الشر والبهيمة، واعتبار الروح مكمن الحكمة والحقيقة، مما يعني إقصاء

الجسد واستحواذه داخل أطر الحجز (Internement) والعزل (L'exclusion)، ونفيه من كل فعل معرفي يؤسس وجود الإنسان. كل ذلك، وهذه التصورات عبر تاريخها الإقصائي الطويل، غير مدركة أن وجود الإنسان ووعيه بذاته مشروطان بمدى وعيه بجسده. ولعل هذا ما حدا بالفلسفة المعاصرة إلى تجديد شبكاتها المفهومية والمقولية، من أجل تحليل أعمق للحالة الوجودية التي يعيشها الإنسان في علاقته بجسده وبأجساد الآخرين، خاصة مع ميشال فوكو.

1 - 2 - مفهوم القيمة:

يكاد يكون هذا المفهوم من أكثر المفاهيم زئبقية، لأنه لا معيار يحدّده. فإذا كنا نلجأ إلى الميزان حين نتنازع حول الأثقل والأخف، وإلى القياس حين نتنازع حول الطويل والقصير، فلأي شيء نلجأ حين نتنازع حول الفعل، هل هو خيرٌ أم شرٌ، جميل أم قبيح؟ أنلجأ إلى العقل أم إلى الوجدان؟ أم نلجأ إلى الفعل ذاته في علاقتنا به رغبة وشعوراً؟ وأيهما مقياس الآخر، الإنسان أم القيمة؟

تساؤلات راكمت فلسفات كثيرة، من أفلاطون إلى سبينوزا، ومن نيتشه وماركس وفرويد إلى هايدجر وفوكو ودولوز. لكن السؤال ظل مشرئب العنق، لا يفتأ يعاود نفسه في كل خطاب فلسفي يحفر عميقاً في الوجود، ذلك أن القيمة والوجود متضايفان، إذ الأولى تتحقّق في الثاني.

1 - 3 - مفهوم الزمن:

يعد الزمن من أبرز المفاهيم الرئيسة في الفلسفة المعاصرة، حيث إن موضوعاته كانت قاعدة ارتكاز كثير من الفلاسفة، أمثال برجسون وهوسرل وهيدجر وباشلار، وغيرهم كثير. ذلك أن الزمن شرط وجود الإنسان ومجال خلوده وفنائه في الآن ذاته، فمنذ أن انتقل وعي الكائنات من الوعي بالمكان إلى الوعي بالزمان، وثمة سؤال مركزي ملحّ يطرح نفسه على كل عقل يروم بحث الصيرورة: كيف يتأتّى الخلود وثمة الزمن؟ أبالاستمرار في الأبناء أم بالتحقق في الفعل، أم بالتجسّد في الفن؟ كيف يتجاوز الإنسان دثوره الذي هو موته؟ أبوعي الزمن الكمّي الفاعل في الأشياء، أم بعيش الزمن الكيفي المتفاعل في الذات؟ أسئلة كثيرة يثيرها قلق المصير، ووحده الوعي الفلسفي قادر على إعادة طرحها كما الحال في هذا الكتاب.

1 - 4 - مفهوم الجريمة:

لم يكن هذا المفهوم مجال بحث الفلسفة وحسب، وإنما توزّعته قطاعات معرفية مختلفة، الأمر الذي ضيّعه في متاهات النظر، فمن الرؤية الاجتماعية إلى الزاوية الاقتصادية، ومن الاقتصادية إلى الثقافية، وقبل هذا وذاك كان للقطاع الجنائي نظرته الأحادية باعتبار الجريمة جزءاً لا يتجزأ من

مشاغله.

والواقع أن كل تلك الرؤى والتصوّرات ظلّت على سطح الأشكال ولم تبحث طي ثناياه، بل لم تنظر إليه برؤية فلسفية شمولية تطال الفرد والمجتمع والثقافة والتاريخ وغير ذلك، مما قد يكون له أدنى صلة بالموضوع. وما لم يُعمل على إعادة تأهيل الجاني، لا العمل على تجريمه ومعاقبته. ما لم نقُم بذلك كله - فلن نصل إلى «عالم بلا جريمة».

وهكذا بهذا التصور أعاد هذا الكتاب قضية الجريمة جَذعَة، ودفع بها إلى المناقشة مجدداً برؤية ترفض أي إقصاء.

1 - 5 - مفهوم الخيال:

يعتبر الخيال مرتع الأفكار ومنهدة الذات، لكنه كثيراً ما لم يولَ من الاهتمام الفلسفي الكثير، ربما لأنه مرتبط بالشعر والشعراء، أولئك الذين طردهم أفلاطون من جمهوريته الفاضلة، فبحسب كثير من المشتغلين بالحقل الفلسفي، إن الخيال نقيض الفلسفة، والأمر غير ذلك، إذ بالتخيّل وحده يتأسس الإمكان، فهو فاعلية تكوينية خالصة تستنفد طاقتها في الموضوع الذي تخلقه، فتنقله من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل، غير أنه لا يستطيع القيام بذلك ما لم يتحرّر من كل القيود والموانع والمحرّمات، ويتجرّد من كل النظم الجامدة والقوالب الخرساء، ويدفع به بعيداً في مجال الإبداع. ولا تستطيع أمة - مهما كانت - أن ترتاد آفاق التقدم، ما لم تعمل على تحرير خيالها وتطلق له عنان التحليق في آفاق الممكنات، مهما بدت للعقل السائد مستحيلة.

تلك هي أبرز المفاهيم الفلسفية التي عالجها المبحث الأول من كتاب «في حقائق الوجود». ولقد استهل الكاتب معالجته لكل واحد منها (عدا مفهوم الخيال) بأسطورة قديمة عليها أقام تحليله، وفي ذلك من العمق الفلسفي الكثير، ذلك أن الأسطورة تعبير فلسفي مرموز، فهي تؤسس أشكال الفعل والفكر الذي بواسطته يفهم الإنسان نفسه داخل العالم، وتظهر كيف أن حقيقة الشيء قد جاءت إلى الوجود، سواء أكانت الحقيقة الكلية (الكوزموز)، أو جزءاً منها فقط، ومن ثم فإن استعادتها ها هنا استعادة لنشأة تلك المفاهيم ومسعى إلى غرسها في بيئة الكاتب.

ولعل ذلك ما عبّر عنه المقال الأخير من هذا المبحث، و والمعنون ب(بيان إلى القرن الواحد والعشرين)، حيث جاء فيه «نحن بحاجة إلى مفاهيم وقيم جديدة، توازي الدور الحاكم الذي تلعبه التكنولوجيا في تغيير عمليات الإنتاج، والتي تقوم على البحث والتجديد» ولعله من هذا المنطق جاءت مشروعية المبحث الثاني من هذا الكتاب، والدائر «حول الفلسفة»، فكيف كان ذلك؟

2 - حول الفلسفة:

إن الفلسفة في حقيقتها هي المعرفة بواسطة المفاهيم الخالصة، كما يقول جيل دولوز، لكننا لا نستطيع استثمار المفاهيم ما لم نبتدعها، أي ما لم نبنها داخل حدوسنا، ولا نستطيع بناءها داخل حدوسنا ما لم نبحث عميقاً في تاريخ المعرفة، ونندفع بعيداً في أفق التخطّي والتجاوز. من هنا كان البعد الاسترجاعي الذي قام عليه هذا المبحث، حيث تمخّض لاستعادة الفلسفة اليونانية القديمة، دعوة منه «إلى قراءة الأدب الإغريقي»، من جهة، ومسعى إلى التحرّر الفكري على نمط الفلاسفة الأوائل، من جهة أخرى. ذلك أنه بالفلسفة وحدها نستطيع أن نعرف أنفسنا، ونوسّع أفق تصوّرنا للوجود، ونثري خيالنا العقلي، من جهة، ومن جهة أخرى، نستطيع بواسطتها التحرّر من كل إكراهات العقل السائد، وأنماط تفكيره وطرق إنتاجه للمعرفة. واسترجاع الفلسفة اليونانية هو صنيع يحقّق المطلبين، فهي، من ناحية، تعَدّ خروجاً على عالم الأساطير الذي كان سائداً في اليونان، فكانت «التماساً» «حرّاً» للمعرفة النزيهة التي ترمي إلى كشف الحقيقة الإغريقية من اللذّة العقلية وحدها، هذا علاوة على «أنه لا يمكن فهم الحضارة الأوروبية من دون فهم الحضارة الإغريقية، التي تشكّل الفلسفة اليونانية عمودها الفقري».

من هنا، جاء هذا المبحث راسماً خريطة تلك الفلسفة، ومقسّماً إياها إلى ثلاث مراحل أساسية هي:

- المرحلة الأولى: وتشمل القرنين السادس والخامس قبل الميلاد.

- المرحلة الثانية: وتشمل القرن الرابع قبل الميلاد.

- المرحلة الثالثة: وتشمل ما بين القرنين الثالث والأول قبل الميلاد.

2 - 1 - المرحلة الأولى:

تشمل هذه المرحلة - كما جاء في الكتاب - مدارس وشخصيات فلسفية عدة، هي على التوالي (المدرسة الأيونية، المدرسة الفيثاغورية، هيرقليطس، المدرسة الإيلية، أمبادوقليدس، المدرسة السوفسطائية، سقراط). وعلى الرغم من التنوّع الداخلي لممثلي هذه المرحلة، إلا أنهم (عدا السوفسطائيين وسقراط) يشتركون في كون فلسفتهم طبيعية توكيدية، لأنهم يفترضون افتراضاً مسبقاً أن المعرفة الإنسانية - ما دامت تتّجه إلى الموضوع - فهي صحيحة. ولعل هاتين الخصيصتين هما اللتان جعلتا المؤلف يصف الطور الأول من هذه المرحلة بأنه نظري المنحى، حيث وضع في هـ الأيونيون والفيثاغوريون والإيليون أصول الفلسفة النظرية، إلى أن جاء السوفسطائيون فضاقوا بالنزعة الخارجية ذرعاً، وبدأوا يولون الطبيعة الداخلية بعض العناية، وشرعوا في تقويض مبدأ التوكيد، معتبرين المعرفة متغيّرة لأن الحسّ متغير، ذلك أن ما يراه كل واحد من الناس موجوداً فهو عنده موجود، وما رآه معدوماً فهو بالقياس إليه معدوم، ولا يتعدّى هذا الحكم إلى غيره. ومن ثم فإنه لا يمكن الوثوق بالمعرفة الإنسانية كما هي، بل ولا بد من إقامة القواعد والبحث في المفهومات والأشياء الذهنية. من هنا جاء سقراط منزلاً الفلسفة من السماء إلى الأرض، حيث إنها كانت قبله «مجرّد حديث للنفس عن الحقيقة والوجود»، عبره يقدّم الفيلسوف عرضاً ذاتياً لآرائه، فأصبحت معه (أي مع سقراط) حواراً مع الآخرين، وأصبحت سؤالاً

موجّهاً بهدف معرفة «الحقيقة»، أي حقيقة الشيء وماهيته، ولعل هذا ما فتح الطريق أمام المرحلة الثانية في تاريخ الفلسفة اليونانية، فما هي أهم خصائص تلك المرحلة؟

2 - 2 - المرحلة الثانية:

تعد هذه المرحلة من تاريخ الفلسفة اليونانية قمة العطاء الفلسفي، حيث قامت على فكر العملاقين: أفلاطون وأرسطو، غير أن المؤلف اقتصر في عرضها على عرض مراحل تفكير أفلاطون وحده، ولم يتعرّض لأرسطو رغم ذكره إياه في المقدّمة، ولعل ذلك عائد إلى اعتقاده بأن أفلاطون كفيل وحده بتمثيل هذه المرحلة، ذلك أنه «يعتبر أول شخص في تاريخ العالم ينشئ مذهباً فلسفياً شاملاً له تأثيره في الفكر والواقع»، كما يمكن أن يكون عائداً إلى رغبته في إبراز وشائج الصلة بينه وبين سقراط، حيث إنه ظلّ مرتبطاً به منذ العام 407 ق.م، وحتى وفاته العام 399 ق.م، ولعل هذا ما حدا بكثير من مؤرّخي الفلسفة إلى تصنيفهما في تيار فلسفي واحد يتّجه نحو الإنسان لينظر للأخلاق، ونحو الماهيات ليبحث في نظرية المعرفة، ونحو وجود الماهيات بوصفه الوجود الحقيقي ليشيد فلسفته المثالية. وهذا ما عبّرت عنه المراحل الفكرية الثلاث، التي مر بها أفلاطون رغم تمايزاتها الجزئية، وخاصة في مرحلته الأخيرة، حين اكتملت لديه نظرية المثل وعمل على تطبيقها في مجال الأخلاق والفيزياء، والسياسة وعقيدة خلود النفس.

والواقع أن الفكر الأفلاطوني، واليوناني بصورة عامة، لا يمكن فهم أسسه النظرية وأطره المرجعية، ما لم يتمّ الكشف عن سياقات نشأته التاريخية، حيث التضايف بين الفكر والواقع أصبح في الدرس الفلسفي من المسلمات التي لا يمكن التغاضي عنها، ولعل هذا ما حدا بالمؤلف إلى تناول «المؤثّرات الخارجية في فكر أفلاطون»، مبرزاً أثر المجتمع الإسبرطي في تكوين فلسفته، وهو مجتمع اتسم بخصائص أساسية كان لها الدور الفاعل في تفعيل الفكر الفلسفي، ومن أبرز تلك الخصائص، كما عرضها المؤلف متكئاً على برتراند راسل، ما يلي:

- نظام الملكية.

- حدود الحرّية الفردية.

- نظام التربية.

- مظاهر الشيوعيّة.

هذه هي أهم خصائص المجتمع الإسبرطي، ولكن أيهما كان أعمق تأثيراً في الآخر: إسبرطة أم أفلاطون؟

ذلك هو تاريخ الفلسفة اليونانية كما عرضه المؤلف غاضّاً الطرف عن المرحلة الثالثة والأخيرة، باعتبارها مرحلة شهدت فيها الفلسفة ضعفاً شديداً بفعل مؤثّرات خارجية، فقضت على جوهرها وطبيعتها، الأمر الذي جعل عرضها أمراً ليس بذي بال ولا أهمية، ولكن لماذا؟ أوليس في الأمر

انتقائية تماماً، كما هو الحال مع المرحلة الثانية؟ أم إن الرؤية الاستنهاضية التي تحكم المؤلف، هي ما دفعته إلى ذلك الصنيع، حيث لم يستعد منها، إلا ما يمكن أن يشارك في عملية التنوير المتمرسة خلف هذا الكتاب؟

نحسب التساؤل الأخير سر الانتقاء، ولعل هذا ما حدا به، تطبيقاً عملياً، إلى أن يتناول في المبحث الأخير من كتابه موضوعاً جد شائك في المنظور الفلسفي والأخلاقي، ألا وهو موضوع الإعدام، فكيف تمّت معالجته إياه، وأي الأحكام الفكرية عليه أنفذ؟

3 - حول الإعدام:

تعرف عقوبة الإعدام بأنها قتل النفس لجرم اقترفته، وهي ظاهرة اجتماعية رافقت المجتمعات الإنسانية منذ نشأتها، لذا عمل المؤلف - بدءاً - إلى تتبّع تاريخها منذ الحضارات الأولى، فتناول التشريعات التي عالجتها في القانون الفرعوني والحمورابي واليهودي والعربي الجاهلي، معدِّداً الجرائم المعاقَب عليها بعقوبة الإعدام، ومبيّناً الطرق التي تنفّذ بها، وقد عكست تلك الجرائم على تعدّدها، وتلك الطرق على تنوّعها، كيف أن موقف المجتمعات المختلفة من عقوبة الإعدام يشكل في الأساس ظاهرة اجتماعية تتضافر في تكوين ملامحها عوامل كثيرة، منها الديني والثقافي والأخلاقي والفلسفي، وحجم الجريمة وتطوّرها، والظروف التي تقع فيها.

لذا من الطبيعي أن تتباين حولها الآراء القانونية والفلسفية والأخلاقية، من قائل بإبقائها، إلى مُنادٍ بإلغائها، لكل من هما وجهة هو موليها في تبرير آرائه، مما أفاض المؤلّف في تبيانه بأسلوب يعكس الروح القانونية الصرفة التي تحلّى بها، الأمر الذي يدفع القارئ إلى «الظن» بأن تلك اللغة الأدبية الباذخة التي تميّز بها المبحثان السابقان، إن هي إلا «تقيّة» يدرأ بها القراء عن أن يحسبوه بالقانون موسوماً، وتلك ميزة يندر على كثير من الكتاب تحقيقها، إذ أنّى أن ينفرد كل موضوع - على اختلاف حقول المواضيع - بلغته إذا كان الكاتب مفرداً؟

ولم تقتصر تلك الروح القانونية على عرض آراء التيار الإبقائي والإلغائي لعقوبة الإعدام وحسب، وإنما أتبعت الموضوع بملاحق تعضده وتثريه وتجعل منه للباحثين في الموضوع مرجعاً، وتلك الملاحق هي:

1 - قواعد الأمم المتّحدة ومبادئها التوجيهية في القضاء الجنائي (عقوبة الإعدام).

2 - الدول التي ألغت عقوبة الإعدام (مع ذكر تاريخ الإلغاء لدى كل دولة).

3 - العقوبة البديلة للإعدام.

ذلك هو كتاب «في حقائق الوجود» للكاتب والباحث محمود خضر، وقد قدّمنا طيّاً لا يدّعي الوفاء، وقراءة لا تحسب، حزت في مفصل التأويل، إذ أنّى لها ومواضيعه لا تتجلّى إلا بما به تتخفّى، ورغم ذلك نحسب أننا فتحنا فيه للتأويل عيناً ففتقنا رتق معانيه ولُحمة

مبانیه.

في حقائق الوجود - رشيد يحياوي

حين تصفّحت هذا الكتاب، لم يخطر بذهني للوهلة الأولى أنه صادر من بلد عربي، هو دولة الإمارات تحديداً، لسبب بسيط يتعلّق بشكل هذا الكتاب، ذلك أن نوعية ورق الغلاف وتصميمه، تصميم الصفحتين الأوليين، لم أعهدهما إلا في المنشورات العربية الصادرة في أوروبا. ولم أتدارك خطأ تقديري إلا بعد الإمعان في عنوان «المجمع الثقافي» المكتوب بحروف لاتينية صغيرة لم تشر إلى دولة الإمارات العربية المتحدة إلا باسمها الإنكليزي المختصر (U.A.E).

وقد تكون هذه مسألة من المسائل التي لا يجوز أن ندرجها ضمن «حقائق الوجود»، أقصد وجود الكتاب العربي المعاصر في شكل جديد، لأني من الداعين إلى ضرورة تطوير المطبوعات العربية لكي يصبح شكلها من جماليتها أيضاً، وخاصة أننا في عصر أصبحت فيه العين خاضعة لتجاذبات الصورة وسلطتها الإغرائية.

ولم يكن محمود خضر بعيداً عن هذا التصور، لأنه خصّص لقضية الجمال فصلاً سماه «الفضيلة الناقصة»، تساءل فيه عن الجمال: ما هو، «وهل هو ذاتي أو موضوعي»، أو أنه غير موجود إلا في أذهاننا؟ لينتهي إلى تأكيد الوجود الموضوعي للجمال، من خلال القيم الحسّية والقيم الشكلية والقيم الارتباطية. لكن الجمال إذا عددناه من حقائق الوجود، فإنه لا يشذ عن حقيقة تلك الحقائق، أي نسبيّتها. وقد عبّر محمود خضر عن ذلك حين أشار إلى تدخّل الخيال والعواطف في رؤية الشيء الجميل، مفرّقاً بين تحسّس الجمال الذي قد يتم بالبصر والسمع، وبين إدراك محتواه الذي لا يفيد فيه الإدراك الحسي، بقدر «إفادة التفكير القادر على النفاذ إلى قلب المعرفة». وربما كانت جمالية الكتاب مما يدخل في الحكم الأخير، لأن جمالية شكل الكتاب لا تشكّل سوى جزء من جماليته الرحبة العميقة، أي جمالية المعرفة التي يقدّمها، والتي لا يمكن النفاذ إليها إلا بمعرفة أخرى راجعة إلى القراءة والتلقّي النقدي. ها هنا بالذات تتولّد جمالية جديدة ناتجة عن تداخل جمالية الكتابة بجمالية القراءة.

إن الكتاب يواجهنا منذ عنوانه بمسألتين فلسفيتين، هما: مسألة الحقيقة، ومسألة الوجود. فالحقيقة مسألة فلسفية لأنها موضوع تساؤل عن الماهية، غير أن حقائق الأشياء والظواهر وماهياتها، ليست دائماً موضوع اتفاق، فهناك حقائق ليست كذلك إلا من جهة نظر الذوات التي تعينها بهذه الماهية أو تلك، ثم إن من الحقائق ما لا يُحصى، وموضوع الفلسفة ليس الحقائق الجزئية العارضة، فهي لا تهتم مثلاً بحقيقة خبر أو حدث معين، بل بمبدأ الحقيقة ذاته. ومحمود خضر لم يكن معنياً في كتابه بهذه الحقائق الكلّية وحدها، بل اهتم أيضاً بالحقائق الراجعة إلى معطيات الواقع، لكن من مبدأ وقوعها في مقاصد التأويل الأيديولوجي التعتيمي. يقول: «إن ما ينقصنا في الواقع هو الحقيقة التي نبحث عنها وتخدعنا وتراوغنا، فنعتقد بأننا أمسكنا بها أو كدنا، فإذا بها تفاجئنا وتخرج لنا لسانها من عدة اتجاهات، مرة في تسابق نووي ما بين الهند وباكستان، فيما يرزح شعباهما تحت سياط الفقر... ومرة في ممارسات إسرائيلية».

والوجود والحقيقة متلازمان، فلا توجد حقيقة إلا في الوجود، وإذا كانت الحقيقة مزيفة فوجودها مزيف كذلك، وكما أن الحقيقة أنواع، فكذلك الوجود. هناك الوجود ببعده الكوني الذي انشغلت به الفلسفة القديمة، وخاصة في مناقشاتها لإثبات مبدأ الوجود ذاته، كوجود المكان والزمان والماهيات والأشياء، ثم هناك الوجود الذي لا يتعدّى إفادة وجود شيء أو حدث أو قضية في مكان وزمان معيَّنَيْن، إنه وجود للأعراض لا للجواهر، ونفضّل تسميته بالوجود العملي والعيني.

اختار محمود خضر التساؤل عن ماهية الوجود هدفاً من أهداف كتابه، فربط بينه وبين التساؤل عن ماهية الحقيقة. والعنوان عبّر عن تلازم هذين الطرفين، وقام المدخل بتأكيدهما بقوله: «الهدف من هذا الكتاب هو أن نتفلسف ونتساءل: ما هو الوجود؟ ماذا يجب أن نفعل؟ ما هي الحقيقة؟ إنها الأسئلة الأدبية الأزلية»، كما أكد صاحب الكتاب. لكن ما سميناه الوجود العملي والعيني هو ما استأثر باهتمام الكاتب، ولعل السبب راجع إلى أن الفلسفة القديمة استهلكت أسئلة الوجود بمعناه الأول، أو لأن واقع الحياة المعاصرة أصبح أكثر إلحاحاً على مسائل الوجود في فعل التاريخ، لا المتعالي عنه، لهذا وجدنا الكتاب ينساق إلى قضايا مثل:

الدول النامية والدول العربية وتحدّياتهما، ومسائل أخرى مثل التكنولوجيا والفقر والهجرة والأمّية والجريمة والإعدام ووسائل الاتصال... إلخ.

لقد قسم محمود خضر كتابه إلى ثلاثة أقسام بالترتيب التالي:

- حول الحياة.

- حول الفلسفة.

- حول الإعدام.

وضم كل قسم مجموعة من المقالات والمباحث وصلت في مجملها إلى 24 مقالاً ومبحثاً، وقد لفت نظرنا ترتيب هذه المقالات واختيار عناوين أقسامها، ولا نعرف على وجه الحقيقة إن كان الكاتب قد اختار ذلك انطلاقاً من تصوّر فلسفي، أو لمجرّد غرض منهجي إجرائي. ونحن نرى في هذا الترتيب ما يرجع إلى عمق التصوّر الفلسفي، لأن الحياة ضد الموت، المتمثّل عنده في مسألة الإعدام، بوصفها مشكلة فلسفية وأخلاقية ووجودية أيضاً. فهل معنى ذلك أن الكاتب اختار ترتيب كتابه وفقاً لهذه الصيرورة الوجوديّة الكونيّة، أي انتقال الأشياء والكائنات من الحياة إلى الموت والفناء؟ وهل وَضْعُه القسم الخاص بالفلسفة وسط هذين القسمين، دليل على إيمانه بأن موقع الفلسفة هو بالفعل بين رؤيتين للكون والحياة، رؤية تنظر إلى الخلف في اتجاه الماضي، أي منشأ الكائنات، ورؤية تنظر إلى الأمام في اتجاه المستقبل، أي مستقبل هذه الكائنات؟!

إن موقف محمود خضر في حد ذاته، موقف تجاوزي قائم على النقد والبحث عن البدائل الممكنة، بما في ها البديل الفلسفي. ونحن نتّفق مع الكاتب في غايات الفلسفة، ونختلف معه جزئياً في كيفيات عمل الفلسفة. نتفق معه في ضرورة الرقي بالفكر الفلسفي العربي،

ونوافقه كل الموافقة في ربطه بين التخيّل والتعقّل في قوله: «لقد آن الأوان للعقل العربي للانطلاق كالسهم إلى عنان السماء بإطلاق الذهن من عقاله ودفعه إلى التخيّل والمزيد من التخيّل المنظَّم». ونختلف معه في موقفه من «الفكر اللاهوتي»، لأننا لا نرى في الدين نقيضاً للفلسفة، بل موازياً متخلفاً، فالبديل ليس بالضرورة في التفلسف خارج هذه المؤسسات، بل في جعلها تستضيء بالفلسفة، وتؤسّس لها، وتعمّم التفكير بها وفيها. وخير مثال على رأينا: هذا الكتاب، فهو وإن لم يصدر عن المؤسسات الموصوفة عنده بالجمود، فقد صدر عن مؤسسة من نوع آخر، هي «المجمَّع الثقافي». أليس هذا دليلاً على أن النظام المؤسّسي يمكن أن يكون نواة إشعاع فكري؟ و«المجمَّع»، بإصداره هذا الكتاب أسهم في هذه الغاية، لأنه كتاب عمل بالفعل على إثارة أسئلة كبرى، واقترح التفكير في أخرى، ومن طبيعة مقاصد أسئلته ونوعيتها اكتسب هذا الكتاب أهميته.

المراجع

1 - «فلاسفة إنسانيون»، كارل ياسبرس، ترجمة د. عادل العوا، بيروت، منشورات عويدات، 1980.

2 - «المأدبة، أو في الحب لأفلاطون»، ترجمة د. علي سامي النشار والأب جورج قنواتي.

3 - «محاكمة سقراط لأفلاطون»، ترجمة د.عزت قرني.

4 - «قصة صوفي»، تاريخ الفلسفة.

5 - «مسخ الكائنات» - أوفيد، ترجمة د. ثروت عكاشة. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984م.

6 - «قصة الفلسفة»، د. مراد وهبة.

7 - «تاريخ النظم الاجتماعية والقانونية»، د. محمد بدر.

8 - «الفلسفة في مسارها التاريخي»؛ د. توفيق الطويل، القاهرة، د. ت. المعارف، 1977م.

9 - «الفلسفة: أنواعها ومشكلاتها»، تأليف هنترميد. ترجمة د. فؤاد زكريا. القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1986م.

10 - «تاريخ الفلسفة اليونانية»، تأليف وولتر ستيس، ترجمة مجاهد عبد المنعم، المؤسسة الجامعية، 1987م.

11 - جمهورية أفلاطون، ترجمة حنا خباز، دار القلم، بيروت، 1980م.

12 - مبادئ القسم العام من التشريع العقابي - د. رؤوف صادق عبيد.

13 - تاريخ القانون المصري، د. محمد عبد الهادي الشقنقيري.

14 - تاريخ النظم القانونية والاجتماعية، د. محمد بدر.

15 - الدفاع الاجتماعي والإصلاح العقابي المعاصر، د. يسر أنور علي.

16 - مدخل لدراسة القانون الجنائي، د. علي راشد.

17 - شرح قانون العقوبات «القسم العام»، د. محمود محمود مصطفى.

18 - المقصلة، ألبير كامو. ترجمة جورج طرابيشي، بيروت، مكتبة الحياة، 1969.

19 - أسرار في حياتك،د. عادل صادق.

20 - تكنولوجيا السلوك الإنساني، تأليف: ب.ف. سكنير، ترجمة د. عبدالقادر يوسف - الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1980م، سلسلة عالم المعرفة.

21 - مجلة عالم الفكر، العدد الرابع.

22 - مصر في العصور القديمة، إبراهيم نمير سيف الدين، الطبعة الأولى، القاهرة، 1991م. ومكتبة مدبولي.

الكاتب

محمود يوسف خضر - فلسطيني، ولد في القاهرة عام 1956م.

- تلقى تعليمه العالي في جامعة عين شمس بمصر، وحاز على الإجازة (الليسانس) في الحقوق عام 1980م، ثم على شهادة الدراسات العليا في القانون الجنائي عام 1982م.

- زاول مهنة المحاماة وشارك في العديد من الندوات والمؤتمرات حول قانون العاملين المدنيين وحقوق الملكية الفكرية. ثم التحق بالعمل باحثاً قانونياً بوزارة الدولة لشؤون مجلس الوزراء بدولة الإمارات العربية المتحدة.

- التحق بالعمل باحثًا قانونيًا بالمجمع الثقافي في أبوظبي عام 1991م، ثم مستشارًا قانونيًا للمجمع حتى 2006 م.

- يعمل حالياً مستشاراً قانونياً بالقرية الإلكترونية في أبوظبي.

- صدر له كتاب بعنوان «في حقائق الوجود» عن المجمع الثقافي في العام 2000م. وترجم إلى اللغة الإنجليزية.

- حصل على جائزة مؤسسة الكويت للتقدم العلمي عن أفضل كتاب في حقل التأليف في الفنون والآداب والإنسانيات باللغة العربية عن كتابه «تاريخ الفنون الإسلامية» وذلك عام 2003م.

- صدر له كتاب «فنون وتاريخ المسلمون في الأندلس» 2011م. وكان ضمن القائمة الطويلة المرشحة لجائزة الشيخ زايد للكتاب في دورتها السادسة 2011-2012م.

- ألقى العديد من المحاضرات في الفنون الإسلامية في إسبانيا والدنمارك والأردن وتونس. وله عدة مقالات ودراسات منشورة في صحف: «الحياة» و«الفجر» و«الاتحاد» و«القدس العربي» لندن، وفي مجلتي «شؤون اجتماعية» و«الأهرام العربي».

- صدر له حديثًا كتاب في أدب الرحلات بعنوان «ضيف على الحياة».

Notes

[←1]

نُشر في مجلة (نصف الدنيا) القاهرية، بتاريخ 28 يناير 2001.

[←2]

إله الشمس في الأساطير الإغريقية، وهو أخو ديانا آلهة القمر.

[←3]

لمزيد من التفصيل حول حياة إيفييجينيا، يتم الرجوع إلى مسرحية «إيفييجينيا في أوليس» ل-«يوريبيديس».

[←4]

مسخ الكائنات - أوفيد - ترجمة، د. ثروت عكاشة.

[←5]

إنجيل يوحنا.

[←6]

صورة دوريان جراي تأليف: أوسكار وايلد، دار المعارف المصرية، وقد أعادت دار التنوير نشر الرواية في طبعة جديدة بترجمة لويس عوض.

[←7]

آلهة الحكمة في الأساطير الإغريقية، ويُقال إنها انبثقت كاملة من رأس زيوس عندما أصيب بصداع مؤلم فشقّ رأسه «فلكان» فظهرت مينرفا.

[←8]

مسخ الكائنات، أوفيد؛ ترجمة، د. ثروت عكاشة.

[←9]

اسبينوزا : فيلسوف هولندي من أهم فلاسفة القرن 17، امتاز باستقامة أخلاقه وخط لنفسه منهجاً فلسفياً يعتبر أن الخير الأسمى يكون في فرح المعرفة.

[←10]

مذاهب الحسن، شربل داغر؛ الجمعية الملكية للفنون الجميلة - المملكة الأردنية الهاشمية.

[←11]

سفر التكوين، الاصحاح الثالث؛ الكتاب المقدس.

[←12]

مولد الزمان، جون جريبن؛ ترجمة د. مصطفى فهمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

[←13]

زعيم الآلهة في الميثولوجيا الإغريقية.

[←14]

إله الثقافة في الميثولوجيا الإغريقية، ويُقال إنه سرق النار وأعطاها للبشر.

[←15]

ابن آلهة الجمال فينوس في الميثولوجيا الإغريقية، ويُصور على شكل ملاك بجناحين ممسكاً بقوس ويحمل على ظهره نوعين من السهام، الذهبية للربط ما بين المحبين، وسهام من رصاص لبث الكره.

[←16]

رسول الآلهة في الأساطير الإغريقية.

[←17]

أساطير الحب والجمال عند اليونان، دريني خشبة.

[←18]

كلمـة إغريقيـة الأصـل تعنـي فـن اسـتخلاص مـواد أوليـة صـناعية مـن المـوارد الطبيعيـة مـن أجـل تـأمين المـواد والسـلع التـي مـن شـأنها أن تغـطّي الحـاجات الماديـة للإنسان.

[←19]

آلهة القمح في الميثولوجيا الإغريقية.

[←20]

إله البحر في الميثولوجيا الإغريقية.

[←21]

معبد دلفي: كانت تقطن فيه عرّافة تدين بولائها للإله أبولو.

[←22]

الجمهورية لأفلاطون؛ ترجمة د. فؤاد زكريا.

[←23]

الجمهورية لأفلاطون؛ ترجمة د. فؤاد زكريا.

[←24]

الفلسفة الغربية، برتراند راسل.

[←25]

عالم الفكر، المجلد السابع، العدد الرابع، العام 1997 م.

[←26]

الدفاع الاجتماعي والإصلاح العقابي المعاصر، د. يسر أنور.

[←27]

المقصلة؛ ألبير كامو.

[←28]

«كومونـة بـاريس»: حكومـة ثوريـة للطبقـة العاملـة تكـوّنت نتيجـة انتفاضـة 1871 م. دامـت 72 يومـاً وفـي 21 أيـار 1871م. اقتحمـت قـوات حكومـة «تـيير» المعاديـة للثورة باريس ونكّلت بقساوة بعمال باريس، ولقد قُتل واعتقل في «الكومونة» حوالى ثمانين ألف شخص.

[←29]

تقرير لمنظمة العفو الدولية نشر في الأهرام المصرية في 29 فبراير 1981م.

[←30]

أصول التربية الحديثة، لإميل - جان جاك روسو.

[←31]

تكنولوجيا السلوك الإنساني؛ تأليف ب.ف. سكينز.

[←32]

المقصلة؛ ألبير كامو.

[←33]

عالم الفكر، المجلد السابع، ص، 1072.

[←34]

عالم الفكر، المجلد السابع، العدد الرابع، ص 1074.

[←35]

المقصلة؛ ألبير كامو.

[←36]

أسرار في حياتك، د. عادل صادق.

[←37]

أسرار في حياتك، د. عادل صادق.

[←38]

المقصلة؛ ألبير كامو.

[←39]

أحد المختصين في علم الجريمة.

[←40]

المجلة العربية للدفاع الاجتماعي.

[←41]

نُشر في صحيفة (السفير) اللبنانية، بتاريخ 19 إبريل 2000.

[←42]

نُشر في صحيفة «الاتحاد» الإماراتية بتاريخ 28 سبتمبر العام 2000.

[←43]

نشر في مجلة (قرطاس)، الكويت - العدد 49، فبراير 2000، ص16 - 17.